رواية

أفواه واسعة

تأليف

محمد زفزاف

الكتاب: أفواه واسعة / رواية
الكاتب: محمد زفزاف / كاتب مغربي
الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

زفزاف ، محمد
أفواه واسعة/ رواية / محمد زفزاف / كاتب مغربي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٧٨ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٨ – ٤٦ – ٩٧٧٢ –٩٧٧
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٩٧٧ / ٢٠٠١

أفواه واسعة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

I

يكتبون كتبا جيدة أحيانا، لقد قرأت بعضها كما قرأت بطبيعة الحال كتبا أخرى سيئة. ولكن لم يحصل أن قام بطل إحدى القصص القصيرة أو الروايات بمواجهة الكاتب، أو واجه ممثل مؤلفا مسرحيا. لقد خدعوني كثيرا عندما قرأت لهم أو شاهدت مسرحياتهم. ولكن الحيلة فيما بعد لم تعد تنطلي عليّ. يريد أحدهم اليوم أن يفعل بي ما يشاء. سوف أترك له الفرصة. غير أنه سوف يجد نفسه أمام بطل لن يشابه ما كان يفكر فيه. لم أحلم بأن أكون سياسيا أو كاتبا ذات يوم، وبما أن الكاتب يصر على الكتابة عن الناس من أجل المنفعة المادية أو الشهرة، فلماذا لا أشتهر من خلاله؟

أقصد من خلال ما ينوي كتابته. إنه يفكر الآن فى كتابة نص قصصي عن شخصيات كثيرة، لكنه سوف يجد معي مشكلة، ذلك أنني لن أصمت، وسوف أتحدث إليه حتى يكف هذه المرة عن الكتابة أو أن يكتب بشكل جيد، حتى يبقى خالدا، وإلا فلنرحل جميعا إلى دار البقاء، إذا كانت ستبقى حقا، أو هي باقية بالفعل. ذلك أمر لا يعلمه إلا الله والكاتب. وطبعا فإن علم الله فوق علم الكاتب مهما علا شأنه أو سفل. سوف أجرب مع الكاتب، وأرى كيف أن بإمكانه أن يغتصب عوالم

كائنات بشرية، جاءت إلى هذا العالم بغير إرادتها مثلما جاء هو نفسه. أعرف أن الكتاب يثرثرون كثيرا، ولكنهم لا يفكرون بشكل جيد فى حقيقة وجودهم فى هذا العالم الغريب. على الأقل فهو غريب بالنسبة لي، لأنني لم أهضم أى شيء فيهز ويبدو لي أني في رحلة قصيرة. دون جدال، كلنا في رحلة قصيرة، وحسب ما نعرف فقد مر من هنا الكتاب والملوك والقواد والقوادون وباقي أصناف البشر، وحتى الذي يقرأ هذه القصة سوف يمر من هنا، من هذا العالم الغريب، لكن لماذا لا نقرأ شيئا قليلا عن حياة كما يتصور الكاتب.

عفوا. وأنا أقول هذا الكلام دست على صرصار، كان يزحف قرب قدمي وأنا جالس على الكرسي. هناك صراصير أخرى في المطبخ ولكني لم أتمكن من قتلها. إن الكاتب يعرف بأن عندي صراصير في المطبخ، وهو وحده يعرف لماذا لم أستطع قتلها.

في سنوات الجفاف الأخيرة التي ضربت المملكة كثرت الصراصير التي تفرخ بسرعة هائلة. وسمعت من الناس أنها موجودة في كل البيوت، حتى في الفيلات أو المطاعم الفاخرة. ولا أستطيع أن أتصور كيف يستطيع أن يأكل إنسان ثري طعاما مرتفع الثمن في مطعم فاخر فيخرج له صرصار من طرف المائدة. أتصور كذلك، أن ذلك الثري، سوف يتظاهر بأنه لم يره خصوصا إذا كانت معه امرأة. فقد تحتج عليه لأنه أخذها إلى مطعم فيه صراصير. وحتى ولو كان في بيتهم صراصير، فإنها كانت ستحتج، فهي لم تتعود على العيش بين الصراصير، ولم تر فى

حياتها قط جرذا. وحتى لباسها قد تكون جلبته لها أختها من أسبانيا أو إيطاليا؛ فكثير من النساء لا يحببن الصراصير والجرذان والخفافيش. المشردون، يضعون الصراصير فى قفة خبز إلى جانب قليل من المازوت يلتقطونه من أرضية إحدى محطات البنزين، فيأكلون ذلك لكي يتحششوا. وربما يكون واحد منهم أخا لفتاة تتناول طعامها في مطعم فاخر.

قصص كثيرة من هذا النوع يعرفها الكاتب ربما. ذات مرة التقى رجل بهيمنغواي في قطار، وقال الرجل لهيمنغواى ماذا تفعل، قال إنني كاتب قصة. فقال الرجل اذهب إلى المغرب ففيه كثير من القصص.

والحقيقة أن نشأة هذه المملكة هي قصة بحد ذاتها. كم من المعتوهين حكموها؟ حتى أن المهدي بن تومت كان يخرج بعد صلاة العصر، ليضرب الناس بعصا في الشارع العمومي، من أجل ردهم إلى طريق الله.

فتح الباب فدخلت والدتي:

– إنك تقرأ كثيرا يا وليدي. لو استمررت على هذه الحال فسوف تعمى عيناك. أو أنك سوف تصاب بالجنون.

قلت لوالدتي:

– هل استعملت مبيد الحشرات؟

– لقد استعملته ليلا. اختفت الصراصير، إلا أنها عادت يا وليدي. إن الله إذا أراد أن يسلط على الإنسان مصيبة، فتلك مشيئته.

– صحيح يا أمي. تلك مشيئته.

– هل بك جوع يا وليدي؟ لقد طبخت عدسا مع لحم رأس العجل، وأصررت على الجزار أن يقتطع لسان العجل. فأنت تحبه كثيرا. ووضعت في الطعام ثومًا فأنت تحب الثوم.

– سوف نأكل سويا، عندما انتهي من قراءة هاتين الصفحتين.

– سوف آكل معك يا وليدي. لأني أعرف أنك لا تستطيع أن تأكل وحدك. ورغم إن العدس يثقل عليّ فسوف أتناول الدواء وآكل معك ولو لقمة.

ذهبت الوالدة، ولم أستمر في القراءة، بل كنت أنظر إلى السماء من خلال النافذة.

وعندما حولت عيني إلى البلاط رأيت صرصارين يزحفان لكن بعيدا عني، ولم أتمكن من أن أدوسهما. ثم قلت في نفسي: مهما دسنا من الصراصير فإنها سوف تتوالد. إن الطبيعة وحدها التي خلقتها هي الكفيلة بالقضاء عليها. شأن ذلك شأن الإنسان. فمهما تم القضاء على الأشرار إلا ويولد آخرون في صورة مشردين دينيين أو رعاة كنائس أو قادة سياسيين. فى الحقيقة، الكتاب الذي كنت أقرأه لم يكن يتحدث عن

هؤلاء بل كان يتحدث عن لغة الطيور والعصافير، شيء جميل أن يكتشف الإنسان ما حوله، ويعرف أنه ليس هو الوحيد الذي يتكلم. ولو كان الصرصار يتكلم لقال لي قبل لحظة: لماذا دستني؟ هل أنا أفعى أم عقرب؟ أنا لا ألدغ. وآنذاك كنت سأقول له معك حق. أنا أعتذر. إلا أن منظرك قبيح، وكان سيقول لي :انظر إلى الشارع، كم من الوجوه القبيحة والشريرة ترى كل يوم فلم لا تسحقها وكنت سأقول له: إنني لم أخلقها وخالقها هو الذي سوف يدوسها. ثم إنني في نهاية الأمر لا أحب العنف. أعتذر مرة أخرى عن قتلك. وكان سيقول: إنك عاجز. لم تستطع أن تقتل سوى صرصار بئيس. وبما أنه لا يتكلم فلم يستطع أن يقول هذا الكلام.

ودخلت والدتي:

– إن الطعام جاهز يا وليدي

هززت رأسي، وقفت وتمطيت، وتبعت والدتي لتناول العدس ولحم رأس العجل واللسان.

II

المقهى على مشارف المحيط الأطلسي، أمواج عالية، لا شك أنها كانت تهدر. إذ لم يكن بإمكانه سماع هديرها، لأن زجاج المقهى كان يمتص هدير الأمواج وأصوات طيور النورس التي تحلق في السماء وتحاول أن تلتقط شيئا من صفحة البحر. ومن بعيد، كانت تظهر له باخرة تتحرك ببطء شديد كما لو أنها كانت راسية. إنه يحب هذا المكان، يأتي إليه في الصباح ليتأمل البحر ويقرأ الجريدة. جاءه النادل ووضع أمامه قهوة دون أن يطلبها منه، فالنادل معتاد على ذلك، يعرف عادته، وأحيانا لا يقول له حتى صباح الخير.. إنه شخص غريب بالنسبة للنادل فهو لا يكلم أحدا. يشرب قهوته ويقرأ الجريدة، وعندما يتعب ينظر إلى البحر طويلا، وقد يبتسم أو يكلم نفسه. شخص غريب حقا. تذكر النادل أنه عندما كان صغيرا رأى رجلا مثله في تارودانت كانوا يسمونه عالم العلماء. يجلس على الطوار، يقرأ الجريدة، وبعد ذلك يقف ليتمشى ويتحدث إلى نفسه لكن بصوت جهوري. أما هذا الشخص فهو لا يتحدث بصوت جهوري ولكنه يتمتم فقط ويحرك يديه.

التفت الشخص لأنه سمع حركات غير عادية. دخلت فتيات عليهن أثر النوم، يبدو أنهن كن ساهرات في الحانات الليلية المجاورة.

إنه يعرف ما يجرى على شاطئ المحيط الأطلسي. لكنه كان يبتعد دائما عنهن. لقد جرب، إلا أنه لم يستطع تحمل كذبهن وحيلهن، ولذلك فضل أن يبقى نعجة جرباء.

تهافت النادل على خدمتهن، وبالسرعة التي تفوق اللازم، لأنهن يدفعن بشكل جيد، وبطبيعة الحال فهن كريمات، لأنهن بتن جائعات وعليهن أن يأكلن فى الصباح استعدادا لجوع المساء. كان يحرك يديه. إلا أنه كف عن ذلك ربما خجلا منهن. وهو يعرف جيدا أن الرجال يضعفون أمام النساء فيخجلون. ربما كانت حالته تلك. لقد حصل له ذلك في السابق. كان يخجل من امرأة إلا انه اكتشف فى نهاية الأمر أنها عادية، ولم يكن هناك داع للخجل منها، إذ لم تكن سوى امرأة. لكن الشيء الجميل فيها أنها كانت تحب العطور والزهور والعصافير والكذب. وأجمل شيء فيها أنها كانت تعرف كيف تكذب عليه حتى أنه كان يصدقها إلى أن فطن بها واختار العزلة. وأراد أن يحب أخرى، إلا أنه قال في نفسه ذات مرة: "إن الحب ليس إرادة". وفكر أيضا: "إن العزلة هي الإرادة". التفت مرة أخرى ليتأمل المحيط الأطلسي، ربما كان يهدر ولم يكن بإمكانه سماع هديره.

جاء النادل:

– أنت تعرف العادة. إنها الساعة الحادية عشرة والنصف. سنهيئ الموائد للغداء.

قال:

– أعرف.. هل تناولت الفتيات إفطارهن؟

– انظر. لقد انصرفن ولم تبق إلا أنت.

دفع ثمن القهوة، وقف وأخذ ينظر إلى المحيط، في حين انصرف النادل بالفنجان والصحن.

عاد النادل ووجده لا يزال واقفا يتأمل المحيط. ثم قال له:

– لقد قرب وقت الغذاء. عليك أن تنصرف الآن. إنك لست من زبناء تناول طعام الغداء. تعال إذا سمح لك بتناول قهوة فى هذا المكان، تأبط جريدته وانصرف.

(كاتبه؟ من يكون هذا الكاتب؟ وهل يستطيع الكُتَّاب أن يفعلوا بالناس ما يشاءون؟ إنهم لم يخلقوهم حتى يفعلوا بهم ما يشاءون. فالكتاب أنفسهم مخلوقون مثل الجميع. وأقول دائما: إن ما يهم هو ما الذي سيحصل لحظة الوصول إلى هناك، إلى الأعالي. كل واحد لا يعرف ما الذي سوف يحصل. والناس لا يعرفون حتى ما هو حاصل هنا، بل الذي سوف يقع هناك. أنا أعرف أن عليَّ أن أغادر المقهى لأن هناك أناس سوف يأتون لتناول الغذاء. وهذا شيء طبيعي، لكنني لا أعرف ما الذي يمكن أن يختاره أى إنسان من طعام. هناك مثلا من يكون مصابا بمرض السكري أو بالقرحة أو بمرض الوهم. لم يكن ضروريا أن يقول لي

النادل: ما الذي سوف يفعله بك كتابك. ويبدو لي أحيانا أنني أعرف ما أفعل بنفسي. وللأسف فإن الناس يتدخلون في شؤون بعضهم، كأن يتدخل النادل أو الكاتب أو رجل السياسة أو حتى من لا شغل له في حياتك. إن الناس يتحدثون عن العقد، وإذا كنت أعاني من عقدة فإنها بكل تأكيد، تخوفي من تلصص الناس عليَّ، فأحيانا تبدو لي نظراتهم خبيثة، مبهمة، وكلامهم فيه كثير من التناقض، فهم في نفس الوقت، ويريدون لك الموت، لكي يستريحوا منك ويريدون أن يتشفوا فيك: مريضا، مطلقا، مفلسا، مطرودا من العمل. باختصار: "خلاء دار أبيك!" إذا لم يكونوا قد أخلوها بالفعل. وبدل أن يخلوا سبيلك فإنهم يخلون دار أبيك (إذ لم تكن لقيطا بالفعل).

قال النادل ما قال، ويمكن للكاتب أن يقول ما يريد أن يقول. ليس الإنسان حيوانا ناطقا ولكنه كائن قوال. فحتى الأبكم يتقول في الناس. ولو علم الذين يتكلمون ما يقوله الأبكم لحفروا لهم قبورا).

المشهد اليومي العادي: إنهم يمرون بسياراتهم أو على دراجاتهم أو أرجلهم. وتمر أشياء كثيرة في رؤوسهم. فيم يفكرون؟ لا أحد يعرف. لكن اللواتي أفطرن بشكل جيد في الصباح، لا شك أنهن يفكرن في كيف سوف يحصلن على دفع ثمن الإفطار القادم، ودفع أجرة القوادات اللواتي يسمينهن مربيات، كي يحتفظن لهن بلقطائهن ولقيطاتهن الذين سوف يكبرون واللواتي سوف يكبرن، ولن يفكك معهم ومعهن إذ ذاك حتى صابون تازة.

III

إن النادل أحمق، وهو لا يعرف بأن الكاتب سمعه ورآه كيف يتصرف في المقهى أمام الزبائن في ذلك الصباح على شاطئ المحيط. لم يفعل الكاتب شيئا سوى أنه دخل معنا إلى المقهى وأي ما حصل لي ذلك الصباح. وعلى كل حال، فكل ما قد حصل يعتبر شيئا عاديا، قد يحصل في أى مكان من أنحاء العالم، علما بأن هناك أناسا كثيرين فوق هذه الكرة الأرضية لا يجدون حتى ما يدفعون به ثمن بصقة بلا قهوة وكعكة. ويمكن للكتب أن يؤكد لكم ذلك، فلا شك أنه يتتبع ما يجري وما جرى فوق الأرض، وإذا لم يكن يعرف ذلك فلا داعي للكتابة. إنه يعرفه بكل تأكيد. يعرف أن هناك فقراء وهناك أغنياء ويعرف– كما نعرف جميعا– أن هناك ساسة محتالين ورعايا مغفلين يثقون بكل ما يقال لهم، ولا شك أن الكاتب كتب عنهم ماسحي الأحذية وكاسحات الألغام. لحسن الحظ أن مملكتنا ليست مزروعة بالألغام تحت التراب، ولكن تلك الألغام القاتلة مزروعة في الرؤوس كم قتلت من مرضى في المستشفيات غير المجهزة!! إن الكاتب يعرف كل هذا، أو من الواجب أن يعرفه. أن يعرف أيضا كيف لم يستطع إنسان أن يدفع ثمن قهوة أو شحمة، وكيف أن امرأة باعت جسدها لأنها لم تجد ما تقتات به، وكيف أن شابا يجلس بالقرب منها على رصيف مقهى على شاطئ المحيط، في انتظار زبون يأتي لكي يأخذها إلى أقرب فندق ثم تعود بسرعة لتدفع بعضا من تلك الدراهم لذلك الشاب، الذي غالبا ما يكون وسيما حتى لا

يثير الشبهات. إن الكاتب يعرف كل هذا، وأنا أعرفه كذلك، ولا أبالغ إذا قلت بأنكم أيضا تعرفونه وربما عرفتم أشياء أخرى أكثر مما نعرف، فالمعرفة لا تقصر على شخص ما. هل يعرف أحد أنه كان سوف يولد ذات يوم؟ وأنه سوف يصاب بجنون؟ أو أنه سوف يصبح رئيس دولة أو أن يلقى به في السجن أو ساحة المعركة أو حمالا في ميناء الدار البيضاء؟ وهل كنت أنا نفسي أعرف أن كاتبا سوف يترصدني وسوف ينطقني بما كنت أحاول أن أخفيه؟ وأن يتتبع حتى حركاتي؟ وكل واحد منا يحرص ما أمكن على إخفاء كل شيء عن الآخر حتى ولو كان أقرب الناس إليه. لكن مهما بلغ هذا الكاتب من قدرة فإنه لن يستطيع معرفة كل شيء عني؛ فعلماء النفس والحكماء لم يستطيعوا معرفة الشيء الكثير عن أنفسهم بدءًا من كونفوشيوس وموتز motes إلى رايش. من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن العشرين. فكيف إذن بهذا الكاتب يستطيع أن يعرفني؟ عليه أن يعرف نفسه أولا. أنا لا يهمني ما يريد أن يقوله عني. ما يهمني هو أن أعيش حياتي بالطريقة التي اخترتها لنفسي. كما اختار كل واحد منكم حياته، وبطبيعة الحال، فإنني لن أختار طريق مماتي. غير أن الموت لا يرعبني. ما يرعبني هو الحياة، كنت في عالم ما فوجدت نفسي هنا بين أناس على شاطئ المحيط ووجدت نفسي أشرب القهوة وأدفع ثمن الكراء ويتبعني كاتب لا أدري من أين جاء، ربما كان جاري في ذلك العالم الغيبي الذي جئت منه، ولا شك أنه عالم أحسن بكثير من هذا العالم الذى أنا فيه، والذي يصيبني فيه أحيانا أرق ومرض، وأرى فيه وجوها عابسة وأخرى صارمة وأخرى تضحك بهستيرية. ليست

عندي فكرة عن ذلك العالم الغيبي الذي جئت منه، ولكن يبدو لي– وأتصور ذلك على الأقل– أنه ليست فيه قنابل ولا خناجر ولا طائرات مقنبلة ولا مدافع ولا حسابات في البنك ولا ديون ولا فقر. لا أدري، ربما كان الكاتب يحمل نفس أفكاري.. المهم أنني جئت من عالم آخر لكي أعيش في هذا العالم، وأحيانا أشعر كأنني كما لو كنت في فسحة، لكن مع أناس لا أعرفهم، ولذلك أشعر بالوحدة في بعض الأوقات. وأتساءل مع نفسي:

ماذا أفعل في هذا العالم؟ فأجد الجواب سريعا: الذي جاء بنا سوف يعيدنا إلى المحطة التي جئنا منها. صحيح أننا غرباء لكننا نؤنس بعضنا بانتظار الحافلة التي تعيدنا إلى المحطة، لكنها تأخرت. إنها رحلة صعبة حقا لكنها ممتعة مع ذلك أعتقد أن الكاتب نفسه يعرف ذلك ولهذا فإنه يتسلى بكتابة قصص. ولو لم يفعل ذلك، ماذا كان بوسعه أن يفعل؟ هل يذهب ليلقي بنفسه في البحر أم يرشح نفسه للانتخابات؟ ففي هذه الرحلة القصيرة يفعلون كل شيء مما لا يخطر على بال: يحبون ويقتتلون ويكرهون ويسرقون ويصلون ويتزوجون وينجبون. وبما أن الحافلة تتأخر أحيانا فإنهم يعتقدون بأنهم سوف يبقون هنا، ولذلك فإنهم يبنون بيوتا وعمارات، ولا يعرفون بأن الحافلة عندما تصل وتنقلهم إلى المكان الذي جاءوا منه، لن يبقى من ورائهم سوى الغبار، وسوف يجئ مسافرون آخرون. وأنا أعرف جيدا أن كل إنسان شرب قهوة على رصيف مقهى عليه أن يترك المكان لغيره، بعد أن يرشف قهوته بتلذذ أو امتعاض لا يهم. ودون أن يقول لي النادل بأن الوقت قد حان لكي أترك مكاني،

فإني كنت أفكر في ذلك بشكل جاد، رغم أني كنت أتظاهر بالسهو أو ربما كنت ساهيا بالفعل. وسبحان من لا يسهو ولا ينام. لذلك انصرفت، ولم أكن أحس بالجوع. قد آكل ساندويتشا رخيصا، أو قطعة خبز أحشوها بعلبة سردين فالأكل لا يهمني كثيرا إنهم يأكلون كثيرا ويمرضون وهناك من لا يجد أكلا فيلتجئ إلى الصلاة في المساجد أو الكنائس أو البيع أو المعابد. كأن صلاته سوف تطعمه، وإذا ما يئس من هذه الصلاة التي لا تجلب له الطعام، فإنه يلتجئ إلى السلاح متربصا بالذين يأكلون ولا يتركون له حتى الفتات. الذين يأكلون هم الذين يصنعون السلاح ويعطونه للجياع، وعندما يفشل المصلون الجياع في قتل الأكلة، فإنهم يقتلون بعضهم آملين فى الوصول بسرعة إلى ذلك المكان الذي فيه الطعام بعد وفاتهم. ولا أدري فيم إذا كانوا سوف يجدون طعاما متنوعا مثل هذا الذي يتمتع به الأكلة؟ فالعالم عند الذى جاء بنا من هناك وسوف يعيدنا إلى هناك. لكن الحافلة التي أقلتنا جميعا تتأخر، فتقع فوضى في المحطة، فمنا من ينام (ليس على جنب الراحة طبعا) ومنا من يسرق ومنا يغتصب أو يغصب.

يبدوا البحر الآن شاسعا، وأمواجه تتكسر على الصخور. وقفت متكئا على الحاجز أتأمل زرقة البحر وبياض زبد الأمواج. شاهدت أشجار الرتم الخضراء القصيرة، كانت كثيفة متشابكة تشكل غابة، وقلت في نفسي: لماذا لا أذهب إلى تلك الغابة لأفعل شيئا لم أكن أعرف ما هو، كما فعلت في سنوات سابقة. فقد نفعل أشياء لم تخطر لنا على بال. أحيانا يفكر الإنسان في فعل شيء، إلا أنه يفعل شيئا آخر. هناك إرادة

خفية تتحكم فيه. قد لا ينوي القتل إلا أنه يجد نفسه قاتلا. وقد لا ينوي خيانة صديقه، إلا أنه يجد زوجة صديقه بالقرب منه في الفراش. إذ ذاك لن تنفعه كلمة "تفو" شيء فوق إرادته قد حصل وانتهى كل شيء. ندم ما حصل قد حصل في نهاية الأمر. إذن سوف أذهب إلى الغابة، وقد أفعل مالا أفكر فيه الآن. المهم أنني سوف أفعل شيئا في الغابة، وبكل تأكيد فإنني لن أقطع الأشجار.

IV

لا تقولي بأنه لا يتحدث إلى أحد. إنك مخطئة ولا تقولي أيضا بأنه أحمق، لأنه يتحدث إلى نفسه أحيانا، ألم تشاهدي في الشارع أو المقهى كثيرا من الناس يتحدثون إلى أنفسهم؟ وبكل تأكيد فإنك تحدثت إلى نفسك مرارا ولم تشعري إلا في آخر لحظة ثم تلتفتين حولك لترين فيم إذا كانوا ينظرون إليك.

أنا لا أعرفه جيدا، ولكني أعرفه. إنه يفضل أن يأتي كل صباح إلى المقهى ليشرب قهوته أو يقرأ جريدته. ودائما يجلس في نفس المكان يتأمل البحر من وراء الزجاج، ينظر هنا وهناك بين الموائد الفارغة أو إلى الفتيات اللواتي ما يزال عليهن أثر النوم، لكن أى واحدة منهن لا تثير انتباهه. تقولين لماذا؟ افطري أولا وسوف أحدثك عنه فيما بعد.

نحن لم نأكل بما فيه الكفاية ليلة أمس. لقد شربنا كثيرا ولم نأكل إلا قليلا. أنا على الأقل أكلت صحن طماطم بأكمله، أما أنت فقد كنت منشغلة بالثرثرة والتقاط حبات اللوز القليلة، التي لم يكن عددها يفوق عشرة حبات. إن على الإنسان أن يأكل حتى لا يموت. وإذا لم تأكلي فإنك سوف تموتين حتما ولن تجدي حتى من يشترى لك كفنا.

صحيح أنك تقولين بأن لك عائلة غنية في تيفلت، وأن والدك يملك حقولا من أشجار الزيتون والأزهار والكروم وقطعانا من الماشية. كل الفتيات اللواتي عرفتهن يقلن ذلك. وأنا بكل صراحة لو كان والدي الذى مات وأنا فى بطن أمي يملك كل هذه الأشياء لما تعشيت أمس بصحن طماطم. تقولين بأنك تعافين الطماطم وأنا متأكدة أن الشخص الذي كنت تثرثرين معه وتحكين له عن الحقول كان بمستطاعه أن يدفع لك ثمن صحن، بل كان بإمكانه أن يطلب علبة من سمك التون وقطعة من البصل وقطعة خبز. وكنت سوف تأكلين بنهم. ولكن لما علم أنك شبعت شواءً وزيتونا وركبت على فرس أدهم كان يفضل أن تركبي عليه، فضل ألا يدفع، خصوصا عندما تحسس جيبه. وربما لم يأكل المسكين لحما منذ أيام رغم أنه يرتدي بذلة أنيقة، ويدخن علبة سجائر أمريكية، بكل تأكيد إنها من السجائر المهربة من أسبانيا. هل شممت رائحة عطره الرخيص؟ لا شك أن ذلك العطر مهرب من أسبانيا. حتى لا تموتي خذي كعكة ثانية. لا يهمك. فأنا أستطيع أن أدفع عنك، لأن معي ثروة اليوم. وغدا سوف يكون شان آخر. أنا أتحدث معك وأنت تنظرين إليه، دعيه وشأنه، تلك هي عادته. إنه ينظر دائما إلى البحر ويرشف قهوته بتلذذ، ولا يهمه شيء في هذا العالم سوى أن يتحدث إلى نفسه. ماذا يقول؟ لا أدرى. وكل الناس يتحدثون إلى أنفسهم دون أن يحركوا شفاهم أما هو فلا يهمه أن تنظرى إليه أو أنظر إليه. سوف نلتقي به مساء فى حانة الميريلاند، وسوف ترين كيف أنه يصبح شخصا آخر. يشرب النبيذ. وعندما ينتشي يشتري باقة ورد لا أدري لمن يقدمها، وأحيانا ينساها أو

يهملها، يشتري كذلك بعض حبات اللوز أو الفستق. إن ثمن الفستق مرتفع، وهو يحبه، يهرسه بأسنانه، ويتأمل الحبة ثم يلقيها في فمه.. وعندما تفرغ زجاجة النبيذ الصغيرة يطلب أخرى. تحوم حوله بعض الفتيات.. يتحدثن إليه، ولكنه لا يجيب إلا بحركة من رأسه فتنصرف الفتيات.

اقتربت منه ذلك المساء، وطلبت منه سيجارة، كانت العلبة موضوعة أمامه. إنه لا يشبه أولئك الذين يضعون علبة السجائر في الجيب. طلبت منه أن يشعل لي ففعل. قلت له:

– هل يمكن أن أجلس معك ولو دقيقة واحدة؟ أعرف أنك تفكر فى شىء ولا تريد أن يزعجك أحد.

قال:

– يمكنك أن تجلسي

وعندما قال ذلك، التفت ينظر خلف الزجاج إلى الشارع الغاص بالمارة والسيارات والدراجات النارية. تلك عادته دائما. إنه يختار زاوية المقهى قرب الزجاج. كأن العالم داخل المقهى لا يعنيه. أنظر إليه إنه ينظر دائما جهة البحر.

وعندما جاء النادل قال لي:

– أنت لم تجيئي لكي تعزين في وفاة أحد. إنها حانة وعليك أن تشربي شيئا.

نظرت إليه ونظرت إلى النادل. وبكل هدوء أعصاب قال للنادل:

– أعطها.

–بيرة.

– اشربي ما تشائين. دخني.

أخذت علبة السجائر وأشعلت لنفسي لأن يده لم تمتد إلى الولاعة. شربت البيرة تلو الأخرى في حين هو كان قد أتى على زجاجتي نبيذ صغيرتين.

بدا لي أنه عندما انتشى أحس بالرغبة في الكلام، وأخذ يجيل نظراته داخل الحانة. ثم قال بصوت خافت

– عجيب!

قلت:

– هل رأيت عجبا؟ لا تتعجب فالدنيا كلها عجب.

–صحيح كلها عجب.

– قل لي. رأيت شيئا لم يعجبك؟

ثم قلت له:

– يبدو لي أني أعرفك منذ زمان.

– كلهن يقلن نفس الكلام.

– من هن؟ أنا أتحدث عن نفسي.

– كل النفوس تتشابه في الأشياء السيئة.

– لا أفهم ماذا تقول؟ عفوا فهمتك.

– اشربي ودخني.

ثم نادى على النادل وطلب زجاجة نبيذ أخرى وبيرتين دفعة واحدة وصحن المقانق. كان فقط يحب حبات اللوز والفستق. وفكرت: لا شك أنه طلب صحن المقانق من أجلي. وفيما بعد عرفت كم هو كريم. حتى أنه كان يدفع لي ثمن شرابي دون أن أجالسه. ولماذا تتعجبين؟ فليس بالضرورة أن يتشابه الرجال. أنت تقولين بأنهم يتشابهون وأنهم مخادعون. أنا اختلفت معك فربما التقيت في حياتك برجال سيئين. مثلا، أنا أحب صديقا لا تعرفينه. ولو لم يطرد من العمل لما كنت هنا أو في الميريلاند. هو يعرف ذلك جيدا ويعرف أنني أحبه. ولكن أين نذهب؟ لقد فكر فى الذهاب إلى أوروبا لكنه لم يستطع الحصول على تأشيرة، وكثير من أصدقائه يظلون يطوفون بجوازات سفرهم الخضراء أمام القنصليات والسفارات لكن دون جدوى. يأتي أحيانا ليأخذني من باب الميريلاند، نتمشى قليلا على الشاطئ وراء السور بين الأشجار القصيرة

التي تحف المسابح، حتى لا تدركنا إحدى دوريات الشرطة فتأخذنا إلى المركز بتهمة ذلك الشيء الذى تعرفينه أو نعرفه نحن جميعا. كلنا سلكنا تلك الطريق. ولا أنسى الشهور الثلاثة التي قضيتها في السجن. ولا شك أنك دخلت السجن. لا تدمعي، فذلك هو قدرنا.

تنظرين إليه مرة أخرى!! دعيه يتكلم. ربما يقف ويخرج من الباب الأيسر لينظر إلى البحر ثم يعود. تلك عادته. قلت لك إنك لا تعرفينه. وأنا أعرفه ولا أعرفه. هل تريدين كعكة أخرى؟ اطلبيها ولا تخجلي من أختك المسلمة، ولن أكرر لك بأنني غنية اليوم. اطلبي عصير برتقال إن شئت.. نعم؟! السجائر موجودة. هل تريدين تبغا أسود أم تبغا أشقر؟ دخني. انظري. ها هو قد عاد إلى مكانه. وبعد ذلك سوف يغادر المقهى وسوف يتمشى باتجاه الغابة على طريق سيدي عبد الرحمن. أقول لك: في ذلك المساء أتيت على صحن المقانق كله طلب مني أن أستزيد، فخفت، لأن الإذاعة كانت تقول بأنه سام في هذا الموسم. وأنا لا أتحمل الألم.. يكفيني الألم الذي أنا فيه في هذا العالم. أنا لا أملك ما أشتري به ثمن الدواء. إن المرض شيء قبيح خصوصا إذا كان الإنسان وحيدا وليست له عائلة. ذات مرة أصبت بمرض– عافاك الله– فألقي بي على الأرض في مستشفى عمومي بدون أكل ولا غطاء. وحتى الفراش كان مجرد قطعة حديد باردة موخزة مؤلمة. ولولا بعض المريضات اللواتي كن يقدمن لي بعض الطعام والغطاء لكنت قدمت منذ زمان. أنا التي أعرف معنى الموت ومعنى الحب. لكن الحب، لا ينقذ من المرض أو الموت. تناولي الكعكة حتى لا تموتي. اطلبي أي شيء ولا ترددي. انظري إليه

الآن. إنه ينظر إلينا ويبتسم. ابتسمي له. لا تخجلي. انظري كيف يمشى نحونا بتؤدة. كأن هذا العالم لا يعنيه في شيء.

– صباح الخير.

– أهلا! صباح الخير. تفضل. اجلس معنا قليلا. اشرب أي شيء.

– لقد شربت قهوتي. هل نمت أمس جيدا؟

– نعم. لكنني حلمت بأشياء غبية.

– كلنا نحلم، والإنسان الذي يحلم حتى ولو في اليقظة هو إنسان غير عادي. هل تريدان أن تشربا شيئا آخر.

– لا شكرا. هذا يكفي.

– لا تدفعا ثمن ما تناولتماه

(اختفى من الباب الواسع، بين شجيرات المقهى، بعد أن صعد الدرجات في تؤدة دائما).

ألم أقل لك: إنني أعرفه ولا أعرفه؟ إنه رجل كريم. يا ليت كل الرجال مثله قد دفع لنا كل ما تناولناه.

تقولين هذا إنسان غريب! ليس غريبا ولا أي شيء. يبدو أنه ابن أصول ولا يحب الناس التافهين. أما أن يتحدث إلى نفسه فذلك شيء يهمه. علينا ألا نتدخل في شؤون الناس. على كل حال، إنه لا يتحدث إلى أحد ولا يسيء إلى أحد.

انظري هناك، إنه يسير ويهمش بجريدته. لا شك أنه يطرد ذبابة. لقد كثر الذباب هذه الأيام ولم يعد ينفع معه أي دواء.

إنه يحب أن يمشي في تلك الطريق دائما باتجاه الغابة. ربما يسكن هناك. أنا لم أتعود أن أسأله. أنا لست فضولية، ثم إن ما يفسد العلاقة بين الرجل والمرأة هو فضولهما.

الرجل مثل طفل. راقبيه من بعيد ولا تزعجيه. حتى يعرف ما يفعل بنفسه. ذلك ما أفعله مع حبيبي!!.

V

إنهم يستطيعون أن يكتبوا بأنفسهم عن أنفسهم، وبما أن أفواههم مشرعة حتى الأذنين فإنهم يستطيعون أن يقولوا ما يشاءون. لم يحصل لي أن كتبت عن أحد، وأن ما كتبته مجرد خيال، لا علاقة له بواقع هؤلاء الذين يثرثرون.

لست كاتبا، إنما مجرد إنسان يحاول أن يعطي انطباعات عن هذا العالم، مثلما سبق الآخرين أن أعطوا انطباعاتهم، مثلما سوف يعطي الآخرون انطباعاتهم في المستقبل القريب أو البعيد.

سوف شيخ الكرة الأرضية وسوف يشيخون، وسوف يموتون مثلما مات السابقون الذين كانت لهم حضارات. مات أنبياؤهم وأولياءهم الصالحون. وجاءت الرسالات السماوية. ومن يدري، فبعد أن ينقرض هؤلاء بعد ألف عام أو ألفين، فقد يبعث زرادشت آخر، وماني آخر. وأتساءل أحيانا لماذا ولد هذان الشخصان في أذربيجان، وانتقلا إلى إيران ثم عادا إلى أذربيجان، وبالقرب منهما أفغانستان وأوزبكستان. ولماذا تنتهي أسماء كل هذه الدول بالألف والنون. كلها دول لمت شملها ما عدا واحدة اسمها كردستان. ولا يستطيع المرء أن يعرف ماذا سوف يحصل لهذه الدولة.

عل كل حال، سوف تنقرض كل الدول أو تندمج فيما بينها، وقد يتصاهر الهوتو والتونسي. وقد يصبح الأفريقي الأسود أبيض، والآسيوي الأصفر أو الذهبي أسود، وقد تبيض وجوه أو تصفر أو تحمر في الدنيا قبل الآخرة. أى بعد ألف أو ألفي سنة، لا يهم.

أنا لست كاتبا، ولم أحلم بأن أكونه ذات يوم. إنني أعرف أن كثيرا من الناس يحلمون بأن يكونوا كتابا أو رسامين أو مغنيين أو ممثلين أو فاضحي عوراتهم حتى يقال بأنهم موجودين. هذا هراء ولهذا لم أفكر في الكتابة ذات يوم. لا من أجل إثبات الذات ولو من أجل الخلود. لكن لا بأس! لماذا لا يستغل الإنسان الفرصة إذا ما أتيحت له حتى ولو بابتسامة ماكرة؟ أن توجد أو لا توجد، فتلك مسألة لا تعني أحدا إلا أنت. كل إنسان لا يهتم إلا بنفسه ولا يعجب إلا طنين رأسه، وإن كان يعتقد بأن الآخرين يهتمون به.

عندما يكتب الكاتب فإنه يعتقد أن كل الناس يهتمون بما يكتب. وفى الحقيقة فإنهم عندما يقرؤونه، فإنما ليبحثوا عن أنفسهم وعن مثاليتهم الخفية في ما يكتب. ولذلك لم أفكر في الكتاب على الإطلاق لأنني لا أبحث عن مثالب الناس. كيف يمكن لإنسان أن يكتب وهو دائما حذر، قلق، خائف حتى من ظله (أحس بذلك في انطباعاتي عندما أعيد قراءتها).

وقالت لي تلك الحذرة، القلقة، الخائفة من ظلها:

– حبيبي! إنك تقرأ كثيرا وأراك أحيانا تسوِّد بعض الأوراق. فلماذا لا تكتب كتابا فتصبح مشهورا، ونصبح أغنياء. وإذ ذاك لن أكون مضطرة للحاق بأختي في سويسرا. سوف نتزوج وأبقى معك في المغرب حتى تدفنني أو أدفنك.

– كوني متأكدة أنني لو كتبت كتابا، فإنه سوف يكون رديئا، وعندها لن تحبي كاتبا فاشلا. فالمرأة لا تحب إلا الرجل الناجح، أقصد الرجل الذي يملأ جيوبه ليغلق أفواه الآخرين التي تتكلم كثيرا.

– كم أنت عنيد! لك أفكار جيدة تستطيع أن تكتبها.

– سوف نكتبها جميعا إذا ما وجدت لي عمن نكتب. لقد كتب كل شيء عن كل شيء ولم يبق لنا سوى أن نقرأ وننظر وننتظر ماذا سوف يحصل فيما بعد.

– لست متفقة معك. إنك كاتب وإن لم تكن تعترف بأنك كاتب.

– أعرف أن كتابة كتاب واحد، خير من كتابة ألف كتاب، إن ألواحا قديمة سوف تظل خالدة في أذهان الناس. لكن ما الذي استطاعت أن تغيره كل تلك الكتب أو الأفكار المكتوبة على الجلود أو الأحجار في سلوك الناس لقد تغطرسوا منذ عهد أطلنطا الغارقة، وهيربيديس التي تنام تحت الأنقاض على ضفة مصب نهر اللوكوس. بكل تأكيد لقد كان من بين أولئك الناس حكماء ومفكرون، ولكن لم يفهم أحد كلامهم، كانوا

غرباء عن الآخرين لكن الله دفن الجميع تحت الأنقاض، هل زرت مدينة العرائش، فهي مدينة يسكنها أحياء، يستأنسون برائحة أجداهم الأموات في هيربيديسز سوف تنقرض مدينة العرائش. وقبل أن يموت جميع سكانها سوف يأتي أحفادهم يشوون سمك المحيط الأطلسي، ويشربون النبيذ في دار إسبانيا. وبعد أن يموتوا، سوف تتوالد الأسماك وتنبت كروم أخرى. وهذه الأشياء– مادمت تصرين على أن أكتب– هي التي يجب أن أكتب عنها.

– حبيبي، إني أعرف أنك قادر على أن تفعل الكثير. كن حكيما منبوذا. فأنا لا يهمني الأمر. إذا ما نبذوك فإني سوف أظل بالقرب منك، حتى نموت سويا. حتى نلتحق بسكان أطلنطا الغارقة أو هيربيديس التي نزلت عليها لعنة الله فأصبحت كومة من التراب. أقصد أصبح سكانها المتغطرسون كومة من التراب.

– منها خلقناكم وفيها نعيدكم

– تقصد الأرض. لا أدرى هل خلقنا منها أم من غيرها. الأمر سواء يا حبيبي. المهم أننا خلقنا وكفى. وعليك أن تكتب، وعلينا أن نحب بعضنا. وإذا لم ترد الكتابة عن تلك الأشياء الأخرى، فاكتب عن حبنا. وقل لهم بأن هناك اثنين في زمان ما تحابا.

–الحب شيء جميل. ولكن هناك من يشوش على من يحب، فيجعل الحب كراهية.

– اكتب هذا يا حبيبي

– سوف أسجل ذلك حتى لا أنسى.

ثم التقط منشفة من المناشف التي كانت ملفوفة فوق المائدة، وأخرج قلما وأخذ يدون بعض الملاحظات، بينما كانت هي تنظر إلى البحر في صمت، متأملة في عالم غريب.

تركته يخربش على المناشف، وغادرت المقهى، كانت تتمشى دون أن تهتم بهؤلاء الذين يتمشون حولها. وقفت عند حاجز حجري، وأخذت تتأمل البحر، وهي تتنفس بعمق رائحة البحر.

كانت تفكر فيما كان يقوله لها حبيبها الذي بكل تأكيد سوف يكتب ذات يوم كتابا عظيما. فتلك القصص القصيرة الجميلة التي يكتبها تعجبها كثيرا.

فكرت في المجلات والندوات والرحلات واللقاءات الفكرية التي سوف يحضرها بينما كانت تحلم، أحست بيد توضع على ذراعها. كان يضع نظارتين سوداوين على عينيه. قال لها بدون مقدمات:

– مانشوفوكش.

سحبت ذراعها من كفه. لم تنظر إليه. بل كانت تنظر إلى البحر دائما. كرر الرجل نفس الكلام، إلا أنها انسحبت فى هدوء عائدة لتلتحق بحبيبها في المقهى. تبعها الرجل بضع خطوات إلا أنه توقف.

وعندما دخلت إلى المقهى وجدت حبيبها قد لف تلك المناشف ووضعها أمامه وهو يدخن بانتظارها.

قالت له:

– هل سجلت بعض الملاحظات؟

– نعم.

– إذن ها أنت تحاول أن تكتب. هناك أناس كثيرون تحب الكتابة عنهم. إن لحظة بسيطة واحدة فى حياة أى إنسان تستحق الكتابة عنها. لو كنت كاتبة مثلا لسجلت على سبيل المثال أن امرأة كانت واقفة تتأمل البحر وهى تحلم، وجاء رجل لا تعرفه، ووقف بالقرب منها لامسا ذراعها وهو يقول لها: "مانشوفوكش".

– كان على المرأة أن تقول له شوف مع البحر. وتنتهي الحكاية دون الكتابة عنها.

– إنك تفكر جيدا يا حبيبي.

غادرا المقهى، وأخذا يتمشيان على نفس الرصيف الذي تمشت فيه قبل لحظات.

وضع كفه على ذراعها وهما يسيران، لكن لمسة يده لم تكن لمسة ذلك الرجل ذي النظارتين السوداوين.

VI

أعرف الكاتب لكنه لا يعرفني، لقد رأيته مرارا وخصوصا فى ذلك المقهى على شاطئ المحيط، تكون في الغالب معه تلك الصديقة. هي كذلك بطبيعة الحال لا تعرفني، لا تعرف بأنني أنا الذى لامست ذراعها وهي تنظر إلى البحر. ليس من عادتي أن أفعل ذلك مع النساء. لكن يبدو أن كل شيء ممكن فعله مع زوجة أو صديقة كاتب أو أي رجل معروف. لأن صورته تكون في صورتها، كانت تحلم وتنظر إلى البحر. وحتى عندما لامست ذراعها لم تبد أى تبرم، إلا أنها بكل تأكيد ظلت تحلم. وعندما يستغرق الإنسان في الحلم فإنه لا يعود إلى الواقع إلا بعد فترة قد تطول أو تقصر. وهناك من يظل يحلم طيلة حياته بدون طائل. ولربما كانت صديقة الكاتب من ذلك النوع. لم أكن أريد أن أشوف معها بالفعل، ولكني فقط كنت أريد أن أعرف رد فعلها. إلا أنها ظلت حالمة، ومشت بخطى هادئة لتلتحق به ولا أدري ما الذي قالت له. وقد تقول له بأن رجلا ما غازلها أو قد لا تقول ذلك. فالمرأة تخفي كثيرا من الأشياء. وأنا لا أثق عادة في النساء ما عدا أمي. ويبدو أن الكاتب يثق في صديقته تلك، ربما لأنها تحلم كثيرا، وهناك كثير من الناس يحبون الحالمين، وفي نهاية الأمر. فالحلم جميل إذا تحقق، وما أقل ما يتحقق! (على الأقل بالنسبة لي..) وإذا ما تحققت أحلام بعض الناس فإن ذلك يتم عن طريق الصدفة. إن صديقة الكاتب كانت تحلم أمام البحر، ولربما لم تكن تفكر وهي تتأمل البحر، في شيء آخر غير السفر إلى مكان

بعيد.. ووالدتي حلمت كثيرا بأن أصبح رجلا مهما فى الدولة. لكن عندما لم يتحقق حلمها، أصبحت تطبخ لي جيدا ونأكل معا. وأنا أحب ما تختار وما تطبخ، ربما لأنني أحب أمي، ولأنني أحب أمي فإنني لم أفكر قط في الزواج. كانت تحلم مثلا هكذا:

– اسمع يا وليدي. لقد ترك لنا والدك ما نستطيع أن نعيش به، ما ينقصك هو أن تعثر على بنت الناس، فتتزوج وتنجب، لا عليك بعد ذلك فأنا أستطيع أن أتكفل بتربيتهم.

كان ذلك حلم أمي، وأعتقد أنه حلم أية أم لها ابن واحد، ولا أعرف فيم إذا كان لكاتب أم لا. لكنى أعرف بأن له صديقة. والرجل أحيانا ينظر إلى زوجته أو صديقته كأنها أم. وعندما تحس المرأة بذلك فإنها تحاول أن تصبح أما بالفعل. لا فالكاتب هو وحده الذي يستطيع أن يعرف، وأحيانا قد يجد نفسه بأنه لا يعرف شيئا. صحيح أن كل واحد يتمنى أن يكتب عن حياته، وخصوصا عن الجانب الشقي فيها. ولكن كل شخص قادر على الكتابة. وحتى لو توفرت له القدرة على الكتابة فإنه يخشى أن يبصقوا عليه، مع العلم أنهم مبصوقون في هذا العالم، ومبصوق عليهم كذلك. ويبدو لي أن الكاتب المسكين تعذر عليه أن يكتب هذا البصاق، ومن الأفضل له أن يكتب قصة حب يكون فيها اللقاء والفراق والخيانة والانتحار إلى غير ذلك مما يحصل في قصص الحب. ويمكنه أيضا أن من خلال تلك القصص أن يربي الناس، مع أنهم للأسف لم يربوا ولن يربوا أبدا. حاولت كثيرا أن أتصور قصة الكاتب مع

صديقته، ولكن الأمر صعب عليَّ جدا. ويبدو أن قصتها يجب أن تكتب. وهو أجدر بالكتابة عن تلك القصة، وامرأة حالمة مثل تلك يجب أن يكتب عنها. هذا في حالة إذا لم تكن حالمة وإنما تتناول مخدرات. وكم يبدو أصحاب مدمني بعض المخدرات في هدوئهم وسكينتهم كما لو كانوا حكماء آسيويين أو أولياء الله الصالحين. وإذا ما فتحوا أفواههم وتحدثوا فما على المرء إلا الفرار إلى بؤر جهنم، وتركهم في جنتهم. وعلى ذكر الجنة، فقد قالت لي والدتي ذات يوم:

– اسمع يا وليدي إن الإنسان يكبر ويشيخ ويمرض في هذه الحياة. ولذلك فهذا البلاء كله يبعده الله عنا بالصلاة. وأنا أتمنى أن تقوم بشعائر الصلاة. فصلاتك سوف تدخلك الجنة. وستنسى كل شيء في هذه الدنيا بعد الممات.

وتمنيت لو أن الكاتب سمع هذا الكلام من أمي. ثم إني لا أعرف فيم إذا كان يصلي أم لا؟ وهل يعتقد بالآخرة أم لا؟ فالكتاب تكون لهم نظرة أخرى للحياة حتى أنهم ينتحرون بعد أن يكونوا قد نحوا مجموعة من الناس بأفكارهم.

لا يهم فقد قلت لوالدتي:

– إني أصلي بطريقتي الخاصة

– وهل هناك طريقة خاصة؟ أنا لم أرك أبدا تصلي مثل المسلمين

– هناك أناس في الأرض يصلون بطريقة خاصة.

– أعوذ بالله يا وليدي. أولئك هم المجوس، ومأواهم جهنم. اسأل عن ذلك الفقيه الفرتلي، فأنا أذهب كل جمعة للاستماع إلى خطبته.

– إن الفقيه الفرتلى مجرد حشاش.

– حرام أن تقول هذا الكلام يا وليدي.

وكان في يدها طبق فسقط إلا أنه لم يتكسر. انصرفت والدتي وهي ترتعد، ولم أسمع من كلامها سوى "العياذ بالله، العياذ بالله"، وأنا بطبيعة الحال، أعوذ بالله دائما من وساوس بني آدم ومن وساوس الشيطان. من هنا يصعب على الكاتب أن يتحدث عني أو عن غيري. فأنت تستطيع أن تعاشر الإنسان دهرا ولا تعرف ما يدور برأسه. حتى أنك عندما تفاجأ بتصرف من طرفه لم يخطر لك على بال، تقف على حافة الجنون، وتقول في نفسك أو لغيرك: هل هذا معقول؟! وفي الحقيقة، إنه معقول، لأن أصل المعقول هو اللامعقول. وعلى سبيل المثال– وقد يستطيع الكاتب أن يشرح هذا– هل من المعقول أن أوجد في حياة لا أرغب في أن أوجد فيها؟ وهل من المعقول أن أعيش فقيرا ومظلوما ومريضا، ومتألما، وأجد نفسي داخل زنزانة أو مسجونا؟ إن المعقول هو أن أبقى هناك. وما دمت قد وجدت هنا في هذه الدنيا فما يسمى لا معقول يصبح هو المعقول. لا أؤمن بهذا على كل حال. ولكن الكتاب الذين يتحدثون كثيرا يستطيعون أن يبينوا الفرق بين المعقول واللامعقول. ولعل

هذا هو السبب الذي جعل الكاتب يتردد في كتابة كتابه الذي تحلم به صديقته. فكل شيء قد قيل. لكن فى الواقع لم يقل أي شيء بعد، لكن ربما كان للكاتب ما يمكن أن يقال. فلا أحد يعرف ما تخفيه رؤوس بني آدم. قد يبدو الإنسان ملاكا إلا أن في داخله شيطانا. وهذا والعياذ بالله ما لا يستطيع الكاتب كيفما كان أن يعرفه. أنا أحب الوحدة حقا، لكن لسبب وحيد فقط، هو أنني كلما اقتربت من شخص وحاولت أن أتعرف عليه لم أظفر بطائل، ولو عرفت امرأة على سبيل المثال معرفة حقيقية لتزوجتها وللبيت رغبة أمي. إلا أن تلك المرأة لن تكن بكل تأكيد أفضل من أمي. وحتى ولو اختارتها لي أمي فإنني لن أتزوجها ولا أدري فيم إذا كان الكاتب يفكر في الزواج بصديقته، أم يفكر في كتابة القصص عن الناس؟ لكن يبدو أنه متشنج وعصبي، بقدر ما تبدو هي حالة وهادئة. ولا أعتقد أنهما يستطيعان أن يعيشا تحت سقف واحد. لكن كل شيء ممكن، فأحيانا يكون ملح الزواج هو الشجار المستمر أو المنقطع. وإلى جانب الوفاء تكون هناك خيانات زوجية جانبية، هي بمثابة توابل تضاف إلى الطعام. وعندما تتم تلك الخيانات الزوجية الجانبية، تخلق حال من الحنان مرفوقة بطبيعة الحال بشيء من الندم، لكن سرعان ما يتبدد كل شيء لتعاد الكرة، ولذلك لا أريد أن أتزوج، بمعنى: لا أريد أن أحن وأندم. لكن والدتي– الله يهديها– قالت لي ذات مرة:

– إن الإنسان يا وليدي، يستطيع أن يمرض، ولا يجد بالقرب منه حتى من يقدم له كأس ماء أو قرص دواء.

قلت للوالدة:

– كلامك معقول، ولكن عندما يحين الوقت سوف أقول لك يا أمي بأنني رغبت في الزواج.

قد تذكرت أحد جيراننا الذي مات مؤخرا، كان المسكين– وكلنا مساكين أو ساكنين إلى الله حتى ولو كنا نعبده على حرف– يعاني كثيرا من داء السرطان الذى أودى بحياته.

وعندما علمت زوجته بأنه سوف يموت لا محال، أزالت الحجاب وأصبحت تضع الأصباغ على وجهها، وأصبحت تخرج مع ابنتها إلى الفسحة، تلك الفسحة التي نعرفها جميعا. وكان هو طريح الفراش، لا يستطيع أن يقول كلمة واحدة، كان رجلا صارما حازما. لكن المرض قال له: "شوف واسكت". وهكذا مات. ولم يجد من يناوله كأس ماء فقد كانت زوجته وابنته في فسحة، أما هو فقد ذهب ليتفسح في مكان آخر، إلى جوار ربنا جميعا. أما فسحة صديقة الكاتب فلا أدري كيف ستكون. وقد تقدم له كأس ماء وأقراص دواء، وقد تدلق عليه الكأس عندما يتزوجان. لكن الكتاب يعرفون ما يفعلون بأنفسهم من حيث لا يعرفون شيئا على الإطلاق. على كل حال، لن ألامس ذراع صديقة الكاتب هذه المرة، ولكي سوف أتحدث إليها مباشرة. وربما قد أتحدث إليه هو نفسه، نترك ذلك إلى فرصة مواتية. فكل شيء يجب تركه إلى أن

تحين الفرصة المواتية، وإن كانت أحيانا تقع بعض الأشياء لم نكن نتوقعها. وهذه الأشياء تدخل في ما نسميه فرصة قد لا تكون مواتية.

إن الحياة غريبة، ولن يستطيع أن يفهمها الكاتب مهما حبر من الأوراق، ولم يفهمها حتى الأنبياء والرسل الذين عانوا الأمرين.

وذلك شيء أراده الله سبحانه عز وجل. هناك من الأنبياء من اضطهد، وهناك من الصوفيين الذين ماتوا حفاة عراة جياعا أو قتلوا على أيدي الغوغاء.

وقد قرأت ذات مرة أن الصوفي الجليل مولاي عبد السلام بن مشيش العلمي، الذي اختار أن ينعزل على رأس جبل ويشتغل بالفلاحة قد قتله أحد الغوغاء، لأنه ربما رفض أن يتقلد منصبا في الدولة. والرجال الذين يريدون أن يقولوا الحق، لابد أن يلقوا ذلك المصير بعد أن يشرب الحاكم الزق. وخير للكاتب أن يكتب قصة حب أو أن يفعل الحب. وإذا كان في قلب الحاكم كراهية، فإن على الكاتب أن يكون في قلبه حب.

وقالت الوالدة:

– اسمع يا وليدي. ليس هناك في هذه الدنيا أفضل من حب الله وحب الناس وطاعة الوالدين، وحب الرسول صلى الله عليه وسلم.

– أعرف يا أمي.

– أعرف بأنك تعرف يا وليدي وأعرف أن قلبك عامر بالحب. ولكن الدولة لا تحبك لأنها لم تجد لك عملا. لكن لا بأس إنك تعيش بمال أبيك. أنا لا أريد شيئا في هذه الدنيا. تصدق على الفقراء وابق لي فقط ثمن كفني عندما أذهب لملاقاة ربي.

– أطال الله عمرك يا أمي.

ولا أدري فيم إذا كانت للكاتب أم كما سبق أن قلت. فالإنسان الذي ليس له أم أو أب يكون من طينة أخرى. كأن يدعي النبوة مثلا، والعياذ بالله. فالأنبياء اصطفاهم الله حتى ولو كانوا من الفقراء. بكل تأكيد، فالكاتب يعرف كل هذا– ومن يدري؟– فقد لا يعرفه، فخير العارفين هو الله.

VII

دعيني أظل صامتا فإن ذلك يكون أفضل لي ولك ولهم، لا تدفعيني إلى الكتاب إذا كنت تحبينني. لأنني إذا كتبت ما أفكر فيه فإنهم سوف يفرقون بيننا. علما بأنهم يعيشون فرقاء في هذه الحياة. ورغم أنهم يجتمعون ويتكتلون فإنهم فرقاء.

فالرجل والمرأة أحيانا يبدوان على وئام لكنهما مفترقان روحيا. كل واحد منهما يجذب الحبل من طرف لكي يهزم الآخر. ولكن فى النهاية ليس هناك مهزوم أو منتصر. فالنصر للموت في آخر الأمر. ولكن عندما نفكر فى الموت يا حبيبتي تنتابنا رعشة. لكن لا يعرف أحد منا ما الذى سوف يحصل له.

قبل ثلاثة آلاف عام كان الناس متيقنين مما سوف يحصل لهم. كانوا يعدون قبورهم ويحنطون أجسادهم، وكانوا متيقنين من أنهم سوف يبعثون وأن ليس هناك عقاب شديد ينتظرهم، بل هي مجرد استراحة ويعودون إلى الحياة، ومن يدري فقد يكونون عادوا بالفعل. لكننا نحن بعد ثلاثة آلاف سنة عشنا الوعيد لا الوعد يكفينا نحن يا حبيبتي هذا الوعيد الذي نعيشه في الدنيا. يكفينا هذه المجازر والأوبئة والشرور. فهل هناك أفظع مما نتلقاه في الدنيا؟ وهل الله سبحانه عز وجل ليس له

شغل سوى تعذيبنا في الدنيا والآخرة؟– معاذ الله! – لقد خلقنا لكي نعيش في سلام هذه الفترة القصيرة من الرحلة الأبدية.

لقد خلقنا لكي نحب بعضنا بعضا، ولكي نشم الأزهار ونقطف الثمار ونداعب الحيوانات ونكتب كتبا جميلة تؤنس الآخرين ولا تشوش أدمغة الناس. بكل تأكيد أن ذلك قد حصل قبل ثلاثة آلاف سنة. لكن طيلة هذه الثلاثة آلاف سنة حصل شيء مريب. فهناك من صعد إلى الجبل وهناك من صلب وهناك من شجت رأسه. واحد مصلوب، والآخر صاعد إلى الجبل والآخر مشجوج الرأس. وأصبحنا يا حبيبتي نصلب بعضنا بعضا ونشج رؤوس بعضنا بعضا أو نحمل الأسلحة ونصعد إلى الجبل. ماذا أستطيع أن أكتب إذن؟ عن رجل يتجول على شاطئ المحيط الأطلسي ولا يريد أن يتزوج؟ ذاك شأنه ولا دخل لي فيه على الإطلاق. وإذا كنت تريدين أن أكتب عن قصة حبنا فذاك شيء مقبول على كل حال. وإذا ما كتبتها فأتمنى ألا تنتهي نهاية فاشلة. كأن تنتحري أو أنتحر أو نقتل، لأننا جدفنا في حقهم، لأنهم دائما على حق ولا ينتظرهم الموت أبدًا. إنهم يعتقدون أنهم خالدون وإلى الأبد. يعيشون في الأوهام التي لا حد لها ولا فاصل. انظري كيف يجلس الحاكم على كرسي الحكم، وكيف يخاطب أو يتصرف مع منافقيه. انظري إليهم كذلك. كل واحد منهم يفتعل الوقار. ووجوههم كلها تشي بالخبث. انظري إليهم على شاشة التليفزيون.. كيف يقفون وكيف يتحركون وكيف يشربون الأنخاب المليئة بدماء الآخرين. وانظري إلى حركات رموش عيونهم كيف يتغامزون لكي يكيدوا لبعضهم البعض. أما الحاكم الواثق

من نفسه، فهو مستريح البال، إلى أن ينقض عليها ساطور أو تصيبه رصاصة غير طائشة، وهذه المرة لم تنطلق من الجبل الذي صعد إليه أغبياء، وإنما من أذكياء يمسحون له الحذاء ويقدمون له الحساء، لأنه مصاب بالإعياء والعناء من كثرة المشاغل. إن قصص الحب فيها كثير من العناء. مثل قصص التوصل إلى الحكم. حصل ذلك قبل ثلاثة آلاف سنة وما حصل خلال هذه الثلاثة آلاف سنة كان أفظع، وما سوف يحصل يا حبيبتي بعد ثلاثة آلاف سنة أخرى بعد مماتنا لا يعلمه إلا الله. فى الحقيق، إني أريد أن أكتب، لكنني أخاف من النقاد ومن الحكام. فالنقاد يحرضون الحكام على حرق الكتب ونفي المفكرين أو قتلهم ودفنهم، ونقل رفاتهم من مكان لآخر. حماقات كثيرة يا حبيبتي!! لقد عادت الروح إلى المكان الذي جاءت منه. أما ذلك الرفات الذي بقي في الأرض فإن الحمقى يتلاعبون به.

لقد ذهبنا إلى المكان الذي جئنا منه والسلام. والذين تلاعبوا بالرفات فإنهم– سوف– يعودون إلى هناك. لكن هذه المرة بدون– غمزات ولا لمزات ولا همزات. هل أكتب هذا الكلام في قصة حبنا؟ أعرف ألا أحد يستطيع أن يتقبل كلامنا إذا ما اشتركت معي في كتابة قصة الحب هذه. وأنا متأكد أنه حتى الذي يحب أكل رأس العجل لن يتقبل أفكارنا. وحتى إذا ما حكى لأمه ما نفكر فيه، فإنها سوف يغمى عليها. وقد يغمى حتى على إمام المسجد الذي تقدره ويلقي خطبا جميلة في المسجد الذي ترتاده عندما تكون على طهارة. أعتقد أننا طاهران يا حبيبتي. أليس كذلك؟! لم نقترف ذنبا سوى أننا أحببنا بعضنا البعض. أن

تكتبي عن أشخاص موجودين أو متخيلين فإن ذلك أمر صعب حقا. ومع ذلك فقد ألبي رغبتك وأكتب قصة حب وأنت تعرفين أن قصص الحب قد تتحول إلى قصص كراهية. وقد يبلغ الأمر بأصحابها حد الانتقام، إلى الخيانة أو القتل. وإياكم من حبيبين خان أحدهما الآخر! حتى أن المرء ليتعجب كيف استطاع هذان الحبيبان أن يفترقا، وينتقما من بعضهما البعض، كذلك الأمر في السياسة يا حبيبتي. كم رجل سياسية أعتقد أن له أصدقاء خلصاء أوفياء. ولكنه في النهاية يكتشف أنهم أول من كان يتربص به. وعندما يصاب باللعنة الأبدية، فإنك ترين أتباعا له يحملون حقائبهم ومتاعبهم الدنيوي ويتبعونه إلى السحرة والمستشفيات أو المنجمين حتى يبقى الله على عمره، منهم من يتمنى موته، ومنهم من يتمنى بقاءه. لكنه لا يعرفون بأنهم سوف يموتون بعده، وعندما يصبحون في حالته، فإن أتباعهم سوف يعيشون نفس الاكتئاب ونفس التلهف على التشبث بدنياهم، لكن أروع ما في هذه الدنيا يا حبيبتي هو الطبيعة، تبدو صامتة لكنها حية، والإنسان تعوَّد أن يتآلف معها وينسجم معها فإنه يستغلها لإذلال نفسه وإذلال أخيه الإنسان. إنهم بؤساء في هذا العالم يا حبيبتي. لا تقول بأني متشائم. أحيانا أتصور أن أي كائن حي أبكم يكون أفضل من الإنسان. فهذا الحيوان الأبكم لا يقضي كل وقته في التفكير في الكيد لمماثله من الحيوانات. بل إنه يدافع عن نفسه في الوقت المناسب. اسمحي لي، فذلك الشخص الذي أراد أن يتحرش بك على الشاطئ، كان فقط ربما يريد أن يعرف مدى حبي لكِ ومدى حبك لي.

–آه! صاحب النظارات

– نعم.

– لقد نسيت ذلك منذ زمان. كم أن لك ذاكرة قوية.

– إننا لا نعرف ما تخفيه رؤوس البشر.

– كان ذلك حدثا عاديا يا حبيبي. وأنت تعرف أن قصصا من هذا النوع تحدث كثيرا فوق الأرض

– لم أرد أن أتحدث عن الحادثة. ولكن ما أريد قوله هو أننا لا نستطيع أن نعرف ما تخفيه رؤوس البشر. نحن مثلا متأكدان من حبنا لأننا إذا لم نربح شيئا فإننا لن نخسر شيئا.

– كنت متأكدة يا حبيبي أننا لسنا حاكمين، وفي أيدينا سلطة للاعتداء على أنفسنا وعلى الغير.

– دعيني من هذا الكلام . إن كتابة قصة حب بدأت تخطر لي على بال.

– هذا ما كنت أتمناه.

– نبدأ كتابته في المستقبل.

– ذاك ما أحلم به يا "حبيبي" قبِّلني.

VIII

قالت الوالدة مرارا وتكرارا: "يا بني عليك أن تصلي" وطالما قلت لها: "يا أمي، إن الله ليس فى حاجة إلى قيامي وقعودي وصومي وحجي. إنه بعيد كل البعد عما يفكر فيه البشر" لكن والدتي لا يمكنها أن تفهم هذه الأشياء. شيئان اثنان يشغلان بالها هما الجنة والنار، ولكن من يضمن لأحدنا الجنة أو النار. قال أحدهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله لقد فعلت كذا وكذا فهل تضمن لي معك مكانا في الجنة؟! فأجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وهل ضمنتها حتى لنفسي".

إن والدتي لا تفكر إلا في الجنة أو النار. ولكنها لا تعرف بأن الناس يحترقون في هذه الدنيا. فهذا العالم بقدر ما هو جنة لمن يعرف كيف يعيش فيها بقدر ما هو جحيم. وأغلب الظن أنه جحيم، فالناس يقتتلون ويحترقون. وإذا لم يفعلوا ذلك، فالطبيعة كفيلة بالقيام بذلك. يكون الناس أحيانا نياما، فيقع زلزال وتنهار البيوت على أجسام أصحابها، وتتساقط الأشجار، وتموت الأزهار والطيور، ويئن الأطفال والشيوخ تحت الأنقاض. وعندما يحصل ذلك، فلن تنفع هناك صلاة ولا استرجاع الأرواح التي قيل بأنها ميتة غير أن الأرواح لا تموت.

كيف أقول لوالدتي بأن الأرواح لا تموت وأنها خالدة وأنها من روح الذي لا يموت، وبما أن الروح هي من روح الله فكيف يمكن للروح أن تعذب نفسها. إن الله سبحانه لا يمكنه أن يعذب غدا يوم القيامة كائنات لم تختر أن تكون. وللأسف فإن والدتي لا تحب التفرج على التلفزيون كثيرا. فعندما يرى الإنسان تلك الجبال وتلك البحار وتلك الصحارى وتلك الأسماك التي تأكل بعضها. وتلك الحيوانات التي تفترس حيوانات أخرى ويرى أناسا داخل الدبابات أو الطائرات وهي تلقي بالنيران لقتل أناس آخرين فلن يسعه إلا أن يقول: "يا سبحان الله" إنه لعلى كل شيء قدير" وبطبيعة الحال، فوالدتي لا تشاهد التلفزيون إلا لماما، ولكنها تذهب إلى المسجد، لسماع خطبة لا تفهمها ولا يفهمها حتى الإمام الذي قرأها لأنه لم يحضرها وإنما أرسلتها له وزارة الشؤون الإسلامية لكي يقرأها. يا سبحان الله مرة أخرى فكل شيء قد يحصل في البيعة أو الكنيسة أو المسجد. ولا نتحدث عما كان يحصل في دور العبادة قبل ثلاثة آلاف سنة. وعلى كل حال، فالله كان حاضرا قبل ملايين السنين. وسوف يظل حاضرا حتى بعد وفاتنا وحروبنا وشرنا وخيرنا. إن في حياتنا شرا لنا وخيرا لنا. لن أذهب بعيدا لأن والدتي لن تفهم شيئا من ذلك. فكل ما تعرف أنه فقدت زوجها وأنها تطبخ جيدا وأن هناك مسجدا تذهب إليه كل يوم جمعة، وأنها تتمنى لي أن أتزوج. لكن مسألة الزواج هذه لا تؤرقني على الإطلاق. فقد قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "من استطاع منكم الباءة فليتزوج" وأنا لم أحس الباءة في نفسي، فكيف أتزوج؟ إن المتزوجين يتشاجرون كثيرا، ويقولون كلاما قبيحا عن

أنفسهم، وينافقون بعضهم عندما يرون الأطفال أمامهم. إن الأطفال عندما يكبرون سيفعلون مثل آبائهم. وتتكرر المهازل الأبدية. قلت إن الله (كان) حاضرا. لكن أبناء الثلاثة آلاف سنة أردوا أن يحتكروه لأنفسهم، ونسوا أن أبناء آسيا قبل ثلاثة آلاف سنة كانوا يتقربون إليه بوسائلهم الخاصة، التي لا يعرفها إلا هو لأنه أصل المعرفة. جاء أبناء الثلاثة آلاف سنة ليقتتلوا فيما بينهم، وكل فئة منهم تعتقد أنها هي التي تعرف الطريق إليه. ومن لم يسلك تلك الطريق فإنه يحكم عليه بالموت. وهم لا يعرفون في الموت راحة من هذا الجحيم. لقد خلقهم لكي يستمتعوا، لكنهم حولوا فرصتهم تلك إلى ألم. هل أقول هذا الكلام لأمي؟ إنها لن تفهمني. كما أنها لا تفهم ما يقوله إمام المسجد. كما لا يفهم يهودي أمي ما يقال في البيعة بالعبرية أو المسيحي الأمي الذي يعيش في الأقاصي ما يتلى عليه في الكنيسة بالسريانية أو القبطية. وعلى كل حال، فالله سبحانه عز وجل موجود بكل اللغات. فهو الذي يحيينا ويميتنا متى أراد. وإذن علينا أن نضع أسلحتنا وأن ننظر بعيدا، ثم نقول ثمة وجه الله.

وقالت لي الوالدة مرة أخرى:

– عليك أن تتزوج وتنجب أطفالا، وتترك وراءك ذرية حلالا تشفع لك غدا يوم القيامة.

– من يشفع لمن يا أمي؟

–إني لا أفهم كلامك يا وليدي، إن كلامي واضح، فحتى إذا مات أبناءك صغارا لا قدر الله فإنهم يصبحون ملائكة فى الجنة. ثم إنك عندما تتزوج فإنك سوف تجبر خاطر أمك التي حملتك تسعة أشهر فى بطنها وأرضعتك حليبها.

– إن شاء الله يا أمي. عندما يحين الوقت فإنني سوف أفعل ذلك.

– تزوج وبرهن لأمك على فحولتك، وعلى رجولتك.

– إنني رجل.

– لا يمكن للرجل أن يكون رجلا بدون امرأة، البنات في كل مكان، فى الشوارع والحدائق وكل مكان.

– حتى في مراحيض البارات.

– ماذا تقول يا وليدي؟

– لا شيء يا أمي. ماذا ستطبخين للغداء اليوم؟ لقد سئمت أكل لحم رأس العجل واللسان.

– سأطبخ لك (طجين) بالملوخية فهي تعجبك كثيرا.

مسكينة أمي، إنها تقضي كل وقتها في شغل البيت. لكن ماذا عساها كانت ستفعل، ولو كانت تعرف القراءة لانشغلت بقراءة الصحف

على الأقل. ثم إنها ليس لها صديقات كثيرات، فهي إلى حد ما تحب العزلة، ولا تحب أن تكون هُمَزة لُمزة، لأن الله في القرآن الكريم دعا بالويل لكل هُمزة لُمزة. وأنا أقرأ كثيرا، وقد عثرت على كتاب يهمزون ويلمزون في الوقت الذي يعتقدون فيه أنهم فقط يغمزون. وكثير من الكائنات تلسع ثم تموت. وكثير من الكتاب عبر التاريخ أرادوا أن يلسعوا فماتوا. وقد جروا أنفسهم إلى التهلكة. لكن البقاء لله. كلنا سنموت سواء لسعنا أو صلينا أو تزوجنا وأنجبنا، وسواء أحببنا أم كرهنا، وسواء كدنا لبعضنا أو كيد لنا، وسواء كنا حكاما أو رعاعا.

كنت أقرأ كتابا عن "ستالين"، ووجدت فيه كم قتل من الناس، وكم غير اسمه من مرة. لكنه فى الأخير مات والتحق بأولئك الناس الذين قتلهم. ولا أدرى ما الذي سوف يفعلون به هناك، في ذلك المكان الذي سوف نذهب إليه جميعا. ولا أدرى فيم إذا كانت غريزة الانتقام لدى الإنسان ستبقى بعد الوفاة؟ أسئلة كثيرة من هذا النوع يجب أن يطرحها الكتاب بدل الهمز واللمز. والآن أفهم لماذا يجن بعضهم أو ينتحر؛ فهم غير قادرين على طرح أسئلة بلا الإجابة عنها. وأنا نفسي لا أطرح أسئلة كثيرة لأنني لست قادرا على الإجابة عنها. حياة عادية نعم. جنة داخلية نعم. لن أهمز ولن ألمز. كالعادة دائما سوف أذهب إلى أقرب حانة، وسوف أشرب بيرة أو ربع لتر من النبيذ.

يقول ابن قدامة في المغني: "سألت أحمد (الإمام أحمد بن حنبل) عن شرب الطلا (الخمر) إذا ذهب ثلثاه وبقي منه الثلث، قال: لا بأس

به. قيل لأحمد: إنهم يقولون إنه يسكر. قال لا يسكر، ولو كان يسكر ما أحلاه عمر" وعمر هو الذى نزل التحريم بسببه. المهم أن طجينا بالملوخية ينتظرني، وسوف أذهب لأشرب ربع لتر من النبيذ. أكثر الله من أمثال أمي.

IX

إنه وليدي وأنا أحبه كثيرا. وهل هناك امرأة لا تحب أولادها؟ فحتى القطة تحب صغارها وحتى الكلبة تحب جراءها. فالقطة تحضن صغارها والكلبة تدافع عن جرائها. فكيف إذن لا يمكن لامرأة من بني آدم ألا تحب أولادها؟ إن وليدي أحسن الرجال، وعيبه الوحيد أنه يقرأ كثيرا. ولا يريد أن يصلي أو يتزوج، وقيل أن كثرة القراءة تصيب بجنون. لا أريد لوليدي أن يصاب بجنون. فأنا أحبه وأطبخ له ما يشاء. وليفعل ما يشاء غير أنني أريده أن يبتعد عن ذلك الشيء الذى لا أعرف ما هو. فقد أخذه ذات مرة رجال الشرطة. ولا أدري ماذا فعلوا به. بل قالوا له إن فمك واسع وعريض، وعليك أن تغلق فمك. تلك الحاجة بعيدة عنك ولا تتحدث فيها. وأنا لا أعرف عن تلك الحاجة شيئا، فيم كان يتحدث؟ لا أدرى. ولكن يبدو أنها حاجة صعبة لا يمكن للمرء أن يتحدث فيها. ومن حق رجال الشرطة أن يقولوا للناس لا تتحدثوا في بعض الحاجات. فالله سبحانه الذي يعرف تلك الحاجات. فإذا كانت قبيحة فعلى الإنسان ألا يتحدث فيها. علينا أن نعرف الأشياء الصالحة من الطالحة، ولا داعي لأن ينبهنا أحد إلى ذلك. قد يكون وليدي قد قال كلاما ووشى به الوشاة. مع أن وليدي يعرف ما يقول. إلا أنني أحيانا لا أفهمه عندما يتحدث عن الله وعن الجنة وعن النار وعن الزواج. لكنه بكل تأكيد سوف يتزوج. وأعتقد أنه لا يريد الزواج لأن عينيه خضراء، بمعنى أنه قد يريد هذه أو تلك. إنه يشبه أباه، فقد كانت عينه خضراء، لكنه في نهاية

الأمر كان يعود إلى بيته. كنت أحبه وكان يحبني. والرجال دائما يتشابهون وعلى المرأة ألا تشبه الأخرى. إن سيدها فى البيت هو سيد الأسياد. وإذا ما حاولت أن تستبدله فإنها لن تجد إلا أكفر منه. ولذلك فعليها أن تصبر وأن تربي أبناءها.

أتمنى لوليدي امرأة تتزوجها وتصبر أنه لا يفعل شيئا قبيحا. وكما قلت، إنه يقرأ كثيرا، وعليها أن تفهم أن من يقرأ كثيرا قد يعتقد الناس أنه مجنون. وإذا كانت عينه خضراء فإن لونها سوف يتغير مع مرور الوقت. وعندما كنت شابة كانت عيني أنا أيضا خضراء. كنت أتمنى الزواج بهذا الشاب أو ذاك. لكنني لم أكن أفهم وقتها شيئا. وبعض الذين تمنيت أن أتزوج بهم ماتوا أو شاخوا أو أصبحوا مثل فزّاعات الطيور. كم يكون الإنسان جميلا في شبابه لكنه عندما يشيخ أو يحدودب ظهره، أو يفقد شعر رأسه فلا يتمنى له الإنسان إلا القبر. وقد يستعيد شبابه وجماله في الآخرة، وقد لاحظت أنهم لا يفقدون شبابهم وجمالهم، بل إنهم يصبحون مثل المجانين أحيانا. يقولون كلاما غريبا، ويتصرفون بشكل غريب لا يليق حتى بالأطفال. ولو ذهبوا إلى المسجد لهداهم الله. لكن بعضهم أصبح يشرب الكحول الخالص أو يدخن الكيف. لقد كانوا شبانا لكنهم ماتوا أو أصيبوا بحمق أو فقدوا أسنانهم وشعرهم أو احدودبت ظهورهم. وبكل تأكيد فإن وليدي لن يحصل له ذلك، لأنه لا يرتكب الذنوب ولا يسيء إلى الناس. وعيبه الوحيد أنه يتحدث في تلك الحاجات التي لا أعرف عنها شيئا، ولا يريد أن يتزوج وينجب وأنا أربي. إذا قلت بأن وليدي سيد الرجال فأنا أعرف ما أقول. وأنا لم أرب نعجة

بل ربيت رجلا. وكم من الشمايت يعتقدون بأنهم رجال. تراهم يتطاولون ويفتحون أفواههم حتى الأذنين، ونحن نعرف أن اللسان ليس به عظم، ولكن وليدي لا يتطاول ولا يفتح فمه حتى الأذنين. وإذا قال له رجال الشرطة بأن فمك واسع فبكل تأكيد أنهم لم يسمعوا جيدا ما كان يقوله. وماذا عسى وليدي أن يقول؟ لا شك أنه تحدث عن إمام المسجد وعن الجنة والنار والرشوة وعن أولئك الفتيات الصغيرات البئيسات اللواتي لم يجدن لهن شغلا. هذا ما يستطيع أن يقوله وليدي. وأحيانا أسمعه يتحدث لي عن الحكومة. وأنا لا أفهم في تلك الأشياء. يقول لي أن الحكومة فعلت كذا وكذا وهذا لا يليق بهذا. لكنني لا أعرف ما هي الحكومة وما هو أصلها وفصلها ومن أين جاءت. إن وليدي يعرف تلك الأشياء. وربما لهذا السبب استدعته الشرطة وقالت له "اغلق فمك". فربما الشرطة أخت الحكومة، أو عمتها أو كنتها أو ابنتها أو أمها. أخشى أن أكون قد قلت كلاما عن وليدي. كل ما أعرف أنه طيب ومهذب ويحب وطنه ويقرأ كثيرا ويشرب نبيذا ولا يرغب فى الزواج، ويقول مرارا – ومعه حق– كلنا يا أمي إلى زوال، ويقول كلاما آخر لا أفهمه. ويعجبني وليدي عندما يقول: "إن لقاءنا سوف يكون مع الله. لا غالب ولا مغلوب في هذه الدنيا يا أماه!" أنا راضية على وليدي ورضى الله من رضى الوالدين، كم قال إمام المسجد يوم الجمعة الفارطة، ولا أدري ما الذي سوف يقوله الجمعة المقبلة، إذا ما بقى حيا، فالأعمار بيد الله، وأتمنى لوليدي أن يبقى حيا حتى يتزوج ويصلي ويذهب لزيارة قبر الرسول الكريم، وأن يترحم على والده، وأن يقبِّل الكعبة. لكني أخشى

على وليدي عندما يتوجه إلى مكة المكرمة ويكون عائدا إلى بلده أن تتحطم الطائرة ويموت جميع الحجاج مثلما وقع لبعض السنغاليين عندما حجوا وعادوا فماتوا. لا أريد لوليدي أن يموت بتلك الطريقة، فأنا لا أيد أن أدفنه أو يدفنني، وأتمنى من الله أن يكون قبره بالقرب من قبري وأن نبعث معا غدا يوم القيامة وأن نلتقي بأبيه ونسلم عليه ونقول له بأننا تأخرنا كثيرا عليك. ونقول له أيضا: وكيف كانت الرحلة؟ هل وصلت بالسلامة إلى هنا. سوف يحصل إذا ما تزوج وليدي وأنجب أطفالا مثل باقي الناس الذين يبنون العمارات ويسرقون الحدائق والعواطف والشركات ويصلون ويكذبون وينهبون ويموتون.

إن وليدي ليس له مثيل في هذا العالم؛ فهو لا يسرق ولا يكذب. يا سبحان الله! إنه يشبه أباه في كل شيء إلا أنه لا يصلي ويقول عن إمام المسجد بأنه كذاب. وأقول لوليدي أحيانا لا تقل هذا الكلام فالله وحده المطلع على النفوس. ذات مرة قلت إن وليدي هداه الله فقد أصبح يتكلم مع إحدى بنات الجيران، حتى أنها أصبحت ترسل له كل يوم جمعة صحنا من (الكُسكُس) وكان يأكل خضره ولحمه بنهم. وقلت ربما سوف يتزوجها. لكنه تأخر كثيرا فجاء رجل مهاجر من بلجيكا ذات صيف فتزوجها ورحلت معه. وقد تغيرت أحوال وليدي لبعض الوقت، لكن يبدو أنه نسي كل شيء، فكثير من الرجال ينسون بسرعة، ومنهم من يهمل نفسه، ومنهم من يلقي بنفسه في بحر أو في بئر. لكن وليدي لم يحصل له شيء من ذلك بل أخذ يتحدث إلى فتاة أخرى جميلة، تمنيتها له كما تمنيت أباه لنفسي، وكم كنت أحبه، وهو اليوم في دار الحق، بعد

أن تركنا في دار الباطل. أنا عادة لا أرقص في الأعراس لكنني سوف أزغرد وأرقص في عرس وليدي. وسوف أضع الكحل والسواك والحناء. وأنا لم أفعل هذا منذ وفاة أبيه. ولم لا أفعل ذلك في ليلة العرس؟ ففي ليلة العرس تفرح الملائكة، وعندما نحرق البخور تختفي الشياطين. إن وليدي سيد الرجال، ولأمت بعد ذلك اليوم الذي أنتظره. لكني أتمنى ألا أموت حتى أربي أبناء وليدي.

X

أعرف أنك تحبينني كثيرا، وتتمنين لي أن أكون كاتبا، وأعرف أنك لا تعطين أهمية للمال. هذا شيء جميل. وتقولين بأن المال ليس كل شيء في الحياة. لكنك أحيانا تقولين بأن المال يستطيع أن يشق البحار مثل عصا موسى. لكن موسى مات ومات الفراعنة وتشرد اليهود، ثم تجمعوا مرة أخرى مثلما سوف يتجمع ذات مرة الأرمن والطوارق والغجر، ومن الذين لا أصل لهم، أو لهم أصول نسوها، كل واحد يبحث عن جذوره لكنه لا يعرف بأنها انقطعت نهائيا، وأن الحقيقة الكبرى هي ما هو كائن. ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بما سوف يكون. تلحين عليَّ أن أكتب. لكن عمن سوف أكتب؟ عن "وليدها"؟ إنها تعرفه أحسن مني، وهو يعرف نفسه أحسن مني.

وفي الحقيقة هناك من يركبون رؤوسهم ويعتقدون أنهم يعرفون كل شيء، حصل ذلك قبل ثلاثة آلاف سنة، ولا يزال يحصل الآن. لا يمكنني مثلا أن أكتب عمن يريد أن يسود ويحكم في نفس الوقت. قرأت ذلك عن البئيس شاه إيران الذي انتهى تلك النهاية السيئة التي أتمنى ألا تكون نهايتنا جميعا. وفكرت يا حبيبتي لو أنه فضل أن يسود دون أن يحكم لظل سيد الأسياد. ولو ترك لشعبه حرية الاختيار لما جاء

رجل عادى ليطيح به. وعلى فكرة، فقد كان عندهم في إيران حاكم سموه النبي المقنع، لم ير أحد وجهه على الإطلاق، لأنه كان مصابا بالجذام. وحكمهم بقبضة من حديد، وكانت له نساء كثيرات ورجال عديدون، مخلصون أو غير مخلصين. هذا لا يهم.. المهم أنه كان محاطا بالرجال. وكثير من الحكام يا حبيبتي يقربون إليهم أناسا يعتقدون أنهم أقرب إليهم من حبل الوريد. لكن أو من يقطع حبل وريد الحكام هم أولئك المخلصون. بالتواطؤ مع المخلصات. أنا لا أستطيع أن أكتب عن "وليدها" أو عن الحكام. كان شاه إيران المسكين يختلي بنفسه فى الخلاء ويوهم الناس بأنه ذهب هناك للقاء المهدي المنتظر. وكثير من الناس لا يزالون ينتظرون من يهديهم. هي أشياء كثيرة لا أستطيع أن أتحدث فيها لأنها سوف تجر علينا المتاعب. ولندعهم في غيهم يعمهون. هل لاحظت أن رؤساء تلك الدول الشيوعية كيف تساقطوا مثل الأزهار الذابلة في الخريف؟ لكن تلك الأزهار للأسف كانت لها رائحة نتنة. لقد ذهبوا وخلفوا وراءهم روائح كريهة. أتمنى أن تكوني مصابة بزكام حتى لا تشميها. شيء جميل عندما تقولين لماذا لا يكتب الإنسان عن قصة حب؟ لكن المشكلة أن الحب يتحول أحيانا إلى الكراهية. لا، لا. أنا لا أقول بأن حبنا سوف يتحول إلى كراهية. إن هذا لن يحصل أبدا. قد يقع سوء تفاهم بيننا لكنه لن يتحول إلى كراهية. أنا أعرفك جيدا وأنت تعرفينني جيدا. ما قلته لي أول أمس صحيح. قد يتحاب اثنان طيلة نصف قرن ثم يفترقان. لن يحصل هذا على الإطلاق بيننا. وهناك من يظل مخلصا لمن يحب، مثل التي لا تزال مخلصة لأب "وليدها" ولا

تزال تتمنى أن تلتقي به هناك. إن قصة حب من هذا النوع يمكن أن يكتب عنها. كما أنه يمكن أن يكتب أيضا عن قصة حب زائفة بين امرأة مغربية ورجل من الإمارات العربية المتحدة. وإذا ما قلت امرأة مغربية فإنما أتحدث عن أولئك البئيسات الفقيرات.

– لا تكتب هذا. لأنهم سوف يقلقون ويذهبون إلى فتيات بئيسات أخريات في تايلاند، وتبقى فنادقنا وبطوننا فارغة.

– قلت لك إنه مجرد افتراض

– افترض ما تشاء إلا قصص الحب الزائفة تلك.

– وإذن سوف أكتب عن "وليدها".. اسمعي يا حبيبتي. لقد كتب كل شيء عن كل شيء. من الأفضل أن يغلق الإنسان فمه وأن يأكل ويشرب وينام ويترك كل واحد وشأنه.

– لا تكن متشائما يا حبيبي. لقد خلقنا في هذه الحياة لكي نعيشها.

– متفق معك. لكن مع ذلك تظل كل الأمور مجرد افتراض.

– اكتب في الدين إذن.

– لا.. ذاك أمر صعب. ثم عن أي ديانة أكتب؟ إن للناس ديانات كثيرة ومعابد كثيرة، على سبيل المثال بعد النبي صلى الله عليه وسلم قتل الخلفاء الراشدون، واقتتل المسلمون فيما بينهم ولا يزالون يقتتلون، وكثر الأئمة وكثرت كتب الصحاح، لماذا لا يكون هناك إمام واحد وكتاب صحيح واحد؟ وكان من الأئمة الأربعة موالي، هذا شيء جميل أن يصبح المولى إماما، ولم لا؟ ولم لا يصبح رجل أسود أو أصفر أو أحمر على رأس هرم الفاتيكان؟ هل تفهمينني؟

– أفهمك يا حبيبي. وإذا لم ترد أن تكتب قصة حب، فاكتب قصة الأديان.

– سوف أفعل ذلك عندما يبعث لنا زوج أختك تذكرة سفر إلى سويسرا. ونفكر جيدا فى الأمر هناك، بعد أن نكون قد أصبحنا لا نشعر بالاختناق هنا. ولكي يفكر الإنسان ويختار ما يشاء. عليه بقسط من الراحة. نحن فى حاجة إليها يا حبيبتي. ثم إنني لا أستطيع أن أكتب ما أشاء. ربما إذا ما سافرنا واختلينا بأنفسنا سوف نتأمل بعمق في ذلك البؤس البشري، وربما فكرت في الكتابة عن قصة حبنا أو عن "وليدها" أو عن قصة الأديان، أو عن قصة أخرى أتخيل فيها ما الذي يمكن أن يحصل لهم بعد ألفي أو ثلاثة آلاف سنة.

– إنك تذهب بعيدا. نحن نعيش الآن. وما سوف يحصل لهم ذاك شأنهم. إننا سوف نذهب إلى الجنة. أما هم فسيظلون يعيشون

كالخنازير. المهم أننا مررنا من هنا وكتبنا وأحببنا بعضنا، ونقول لهم بأننا لم نشبه الآخرين من ساكني الصناديق الحجرية أو المزابل أو مدن الصفيح. أعرف أن لك أفكارا مغايرة؛ ولذلك أحببتك. إن الآخرين لا يهموننا بقدر ما يهموننا. أفهمك جيدا. قلت لي مرارا كل واحد لا يعجبه سوى ما يفكر به وأنه دائما على صواب.

– تلك هي مشكلتهم، ولكن الرائع في كل هذا هو إقامة طقوس بعد الوفاة في كل الديانات. تستمر تلك الطقوس ليوم أو لأيام، ثم تستمر حياتهم على ما كانت عليه. ومن هنا يا حبيبتي فإن الموت لا يعنيني في شيء.

– وأنا كذلك يا حبيبتي. أتمنى أن نموت معا لأن الحياة من بعدك لن تعني أي شيء بالنسبة لي. وما معنى أن تبقى روح تتعذب لفترة من الوقت حتى تلتقي بالروح الأخرى هناك؟ من الأفضل أن تبقيا معا، أو تختفيا معا من هذا العالم المليء بالتلوث.

– اكتب هذا. لا تتردد في ذلك.

– عندما نكون في سويسرا كما قلت لك، سوف نتأمل ونقرأ بعض الكتب ونفكر ونكتب لكن مشكلتنا هي أن يرسل لنا زوج أختك تذكرتي سفر.

– أنا أعرفه جيدا. سوف يفعل ذلك بكل تأكيد. والحقيقة أن المشكلة في هذا العالم هي مشكلة تذاكر وتأشيرات.

– إنني متفق معك. في السابق كانوا يسافرون بدون تذاكر ولا تأشيرات وكانوا أحسن أو أسوأ حالا. هذا لا يهم. على كل حال، كانوا يسافرون، ويمرضون ويجوعون وينجبون أولادا من غير أجناسهم. لكنهم فعلوها واستمتعوا أو تعذبوا فماتوا. كل هؤلاء الطواويس الذين تنظرين إليهم في الشارع سوف يموتون، ولا أحد منهم يصدق ذلك.

ثم دخلا إلى المقهى كالعادة، وأعطيا وجهيهما لهواء المحيط، اندسا بين موائد متفرقة على الإفريز وظلا يحلمان ويتحدثان عن الرحيل إلى سويسرا وكيف سوف يكتب هو كتابا لا يشبه باقي الكتب. لأن كل ما يقال سبق قوله، المهم أن طريقة قوله تختلف. وفكر فى شخصية وليدها لكن الأولاد كثيرون في هذا العالم ولا يتشابهون عندما كان يفكر في ذلك. دفع وليدها ثمن قهوته ومر بالقرب منها غير عابئ ولا مكترث قطع الطريق إلى الرصيف المقابل باتجاه الحانة لكي يشرب قنينة نبيذ صغير كالعادة، ولم يكن يهم من يكتب عنه أو من يريد تزويجه.

أقوى الصداقات صداقة الكتب

محاولة لرسم صورة قلمية للقاص المغربي محمد زفزاف

بقلم: عبد القادر الشاوي*

لا أعرف صورا لمحمد زفزاف إلا تلك استقيتها من الكتب في بداية الأمر، وغالبا في الوحدة التي تجسم المقروء وتبتدع له السياقات المجيدة، وهذا يعني أني أجايله وهو يكبرني ببضع سنوات، وأن مسافة السنوات لا تتطابق مع المجايلة، "الكتب تلغي مسافة السنوات، والأوراق تفهم المجايلة"، فقد أتاحت لي الفرصة في أواسط الستينات أن أقرأ مجلة "المعرفة" السورية، فإذا بي، بعد هزيمة يونيه ١٩٦٧ ربما أمام "مهمات المثقف الثوري" التي يبشر بها الكاتب المغربي، إذ بي ثانية في تلك المناخات التي كانت تجعل من الكاتب ضمير الأمة وصوتها القادم من أغوار الهزيمة ليعلن في وجهها أسطورة البعث، ثم صرت أقرأ لهذا الكاتب، في ظل المناخ إياه، ما بقيت اعتبره لسنوات حد الطموح الذي يجب أن يعلنه المثقف المنخرط في تجربة الحياة، بما كانت تبدو عليه تجربة الحياة، في تلك الفترة من نقد أو تشهير، من عنفوان أو انبعاث، من حضور أو ارتهان للضرورة ولم تكن الضرورة سوى بشائر الانتصار التي صاحبت مقدما ميلاد الثورة الفلسطينية .

---

* كاتب روائى مغربى

لم تكن المعرفة السورية على أية شهرة تذكر في المغرب بالمقارنة مع الشهرة التي انعقدت لمثيلاتها من المجلات المصرية "الكاتب"، "الطليعة"، "الفكر المعاصر"، "المجلة"... بينما كان الكاتب المغربي قد أقام لعزلته المحتملة منطقة وسطى، ملتبسة، بين الشهرة والرسوخ لأنه بدأ منذ البدايات الأولى للستينات، وذاع صيته مع مرساها ومجراها، ثم صار علما من أعلام تحولاتها الإبداعية، ثم وأنا في هذه الفترات أقرأ مجلة "المجلة المصرية التي كان يشرف عليها الكاتب يحيى حقي، فإذا بي أقع على "الديدان التي تنحني" ضمن عدد خاص، في ما أذكره، عن القصة العربية القصيرة، فلا يكون ذلك سوى برهان آخر على أن الشهرة لا تنعقد لأصحابها في المغرب، من غير المتربصين بها أو الطامعين في مجدها الواهم، إلا إذا جاءت محمول على الصحائف المصرية، ومع أنني لا أذكر شيئا كثيرا مما سردته "الديدان التي تنحني" إلا أنها أبقت في ذاكرتي صورة هؤلاء العمال الذين من عنف شقها لطريق بري في الخلاء انثنوا على أنفسهم في العياء الأبدي.. وبعضا من أثار خفية، وكانت إشارة دالة وعميقة إلى فرادة الأطراف المنسية في هذه الناحية من الغرب الإسلامي.. ضدا على ما اجتهد المصريون في صياغته من مركزية معممة في الأدب والفن وفي غيرهما من المجالات.

وهكذا تتالت قراءاتي: من مقال إلى قصة قصيرة، ومن شعر منثور إلى مسرح، ومن ترجمة إلى رواية، لنقل: تتالى على "محمد زفزاف" فى تعدده وانكشاف تحولاته بغير قليل من الصور التي كانت تصوغ في اعتقادي التنوع البادي على تجاربه وطموحه الذاهب نحو الفرادة.

ففي أواخر الستينات وبداية السبعينات كان "محمد زفزاف" في المجمل مشاركا حاضرا لا يمكن لقارئ أن يتخطى علاماته أو أن يتجاوز اجتهاداته، فكانت في هذا الحضور بعض الجرأة المستحبة، التي أعتبرها الآن، من الناحية الفكرية، محاولة تمهيدية لمساءلة الجاهز لكي ينكسر في نسبيته، واستقصاء المرفوض حتى يكشف من رفضه والتبشير بالمغايرة إلى أن تقوم زوبعة الثبات.

ومن أطرف ما يمكن قراءته في هذا الباب ذلك الخبر الذي خطه مداد إدريس الخوري، على صفحات الملف الثقافي لجريدة "العلم" تعليقا على صدور أولى المجاميع القصصية لـ "محمد زفزاف" "حوار فى ليل متأخر" في دمشق عام ١٩٧٠ قائلا: "لا تمثل هذه المجموعة كل ما عند زفزاف من قصص قصيرة وطويلة، لكن القصص التي اختارها تعطينا انطباعا بأنها تمثل "زفزاف" الأول، الواقف فوق أرض مغربية والمتطلع إلى تجارب أوروبية بنوع من الشوق الفكري" لا عيب فى الإعجاب".. هذا تعريف فقط أما النقد فمن بعد.. "بصوته المفخم الغنة، فيما يده اليمنى المنتزعة من صدره بعنف، كما هي عادته، تتراقص في الهواء".

وكان بإمكان القارئ أن يطالع في تلك الفترة شيئا قليلا أو كثيرا من كان يكتبه وينشره الكاتب المغربي هنا أو هناك، كقوله مثلا، "نحن أمام أشياء حقيقية يجب أن نقولها بصراحة مطلقة وبلا خجل ولا وجل: العال رائع أو غير رائع، الجنس، الموت، الوضع داخل الأوضاع".. كانت

صورة محمد زفزاف في تلك الفترة صورة طفل غامض لأن البراءة وهم، جاء إلى كلية الآداب من الغرب، أعني من سهل الغرب المغربي، طالبا للحكمة المستحيل، ثم انتقل إلى الدار البيضاء، فيما تبقى من الغموض، وفيها صار كالمرابط في وجهته واستقراره وتآلفه.. وما شاكل ذلك من الصداقات والحوارات والمتاهات التي أحاطت به، وأفترض أن صورة "زفزاف" تلك لم تتغير وإلا وجب اعتبار التغيير شكلا آخر من أشكال الاستواء البديع، وهذا الاستواء البديع هو المظهر والمخبر: علامات الكبر التي تزحف عليه ولا تستبد بوجوده، الوقار المنزل فيه على هيئة مبجلة، الانسلاخ الرافل في الهدوء وهدوئه، هدوء الكاتب المغربي، بل يمكن لمن يزوره في الدار البيضاء وخصوصا في الأوقات غير المعلومة، أن يجده فى نفس المكان السبعيني إياه لا يبرحه إلا لماما كأنه جبل على الوفاء المطلق للمضارب والأوتاد التي تشد الراحلين إلى الأرض وما زال في هذا المكان السبعيني الضارب في المسغبة، يصدر للناس أوراقا وكتب، ولا تتصاد وحدته .

إنني أتكلم في الحقيقة عن وضع اعتباري يجعل المتأمل في الصور التي نحتها "زفزاف" لنفسه أو نحتها له الكتب والأقلام يراه كالجالس فوق ما تراكم من حول أو راكمه من إبداع، إذا مر من ناحيته الغادي استوقفه التمثال، أما الرائح فيقول التحية، وكم تبدو صورة "زفزاف" على شبه بالنصب كبير.

لم أتكلم عن "محمد زفزاف" كما أعرفه، لأنني لا أعرفه أكثر مما تعرف به كتبه وأوراقه، ما نشر منها وما لم ينشر، وقد خلت لفترة أنني أستطيع الكتابة عنه، وهو ما فعلته هنا أو هناك، ومع ذلك فإنني أعترف أن الكتابة كثيرا ما أبعدتني عنه، وأذكر أنني كنت في حديث مع الباحث الأسباني خوان راموس، الأستاذ بجامعة أشبيلية، فإذا بـ "زفزاف" يصبح في المركز من هذا الحديث، ولدهشتي اكتشفت أنه يعرفه أكثر مني فأدركت بطبيعة الحال أن للغربة عن الذات أو عن الآخر وجوها متعددة ومنها هذا الوجه، إن ما أعرفه عن زفزاف ليس أكثر مما حاولت أن أوهم نفسي بالتعرف عليه، وكم في هذا الوجه من غرابة.

لقد صادقت أوراق هذا الرجل فأدركت مقدار ما يمكن لها أن تمنحه من خيالات في المعرفة، وفي ذلك بعض العزاء، وظني أنها المعرفة الأبقى، لأنها مستمدة من مكانة الكاتب والأوفاق المفترضة التي يعقدها مع قرائه من خلال رواياته وقصصه ومساهماته جميعا.

هل هذه صداقة معنوية متحللة من جميع الاعتبارات الخلقية؟ أم أنها صداقة الحياة التي لا تبددها الخصومات المفتعلة بين الكتاب لحيازة الشهرة والإغراق فى التنافس؟

إن صداقة الأوراق، صداقة الكتب، هي كل ما يبقى لنا عندما ننسى، تماما كل ما اكتسبناه من صداقات أو عداوات.

محمد زفزاف... مغامرة الكتابة فى عالم المهمشين

بقلم: عبد الرحيم العلام*

بدأ "محمد زفزاف" مشواره الإبداعي شاعرا في أوائل الستينات قبل أن يتجه لكتابة القصة والرواية تحديدا، كما استطاع "كاتبنا الكبير" (وهي الصفة التي اختارها له محبوه وأصدقاؤه من الكتاب) أن يطبع المشهد الأدبي العربي بطابع خاص يشهد له به الجميع، وخصوصا ما يتصل منه باهتمامه الوفي باستحياء العوالم السفلية في المجتمع المغربي في كتاباته القصصية والروائية، بما يوازي ذلك الاستحياء من رصد وتمثل لعوالم المقهورين: اجتماعيا ونفسيا وفكريا..

وفي انتصاره ذاك لهذه العوالم ما يضفي على أعماله نكهة إبداعية خاصة يتميز بها "محمد زفزاف" في كتاباته، إلى جانب صديقيه في الحياة وزميليه في حرفة الأدب "محمد شكري" و"إدريس خوري".

هذه الخصوصية التي يتميز بها أدب "زفزاف" جعلته يتبوأ مكانة خاصة واستثنائية في المشهد الأدبي العربي والعالمي، فبعض أعماله

* كاتب وناقد مغربى

تدرس الآن في بعض الجامعات الأوروبية والأمريكية، وخصوصا روايته الشهيرة "المرأة والوردة"، وهو ما جعل شهرة "زفزاف" أيضا تخترق المحلية بفضل ما ترجم له من أعمال إبداعية إلى عدة لغات أجنبية كما اختيرت بعض قصصه ضمن المختارات القصصية العالمية.

و"محمد زفزاف" في كل ذلك لم يسع قط إلى الشهرة في حياته، كما أنه لم يشهد له البتة بتهافته وراء الأضواء ووسائل الإعلام والدعاية فالشهرة هي التي سعت إليه، غير أنها لم تستطع أن تغير من أصالته ونبل قيمه، ومن وفائه لمبادئه ومواقفه وهو الذي عاش بسيطا إلى حد الجرح ومات بسيطا.

ولد الراحل بمدينة سوق أربعاء الغرب التي تبعد قليلا عن العاصمة الرباط غير أن اسمه وحياته وإبداعه وشهرته، كما هو الحال بالنسبة لموته، ارتبطت جميعها بمدينة الدار البيضاء، ففي هذه المدينة تفجرت رؤاه الإبداعية، كما وجد فيها ضالته التخيلية. وبإمكان المهتمين بعلاقة المبدع بالمكان أن يتخذوا الآن من هذه التجربة، التي اكتملت وانتهت، مجالا للتنظير والصد والمقاربة، لقد بقي "محمد زفزاف" وفيا لهذه المدينة (الغول)، كما يسميها أحد المبدعين، إلى أن دفن بها استوحاها في جل أعماله، كما تمثل عوالمها السفلى والهامشية ورصد تحولاتها المتسارعة وصيرورات شخوصها وانهيار القيم فيها.

كان الراحل "محمد زفزاف" أحد الكتاب المغاربة السابقين إلى النشر في المشرق العربي، وقد تركت قصته "الديدان التي تنحني" التي نشرت فى مجلة "المجلة" المصرية التي كان يرأس تحريرها الراحل "يحيى حقي" وقعا كبيرا على قراء القصة العربية آنذاك، كما لفتت الأنظار إلى هذا الكاتب.. وقد استمر في نشر إبداعاته ومقالاته الأولى في أمهات المجلات العربية آنذاك (المعرفة السورية– الآداب اللبنانية – الأقلام العراقية، وغيرها..) حيث فرضت إبداعاته نفسها على أشهر تلك المجلات العريقة في وقت كان الوصول فيه إليها أمرا صعبا للغاية.

كما حظيت أعمال الراحل القصصية والروائية، بمتابعات نقدية وتحليلية مكثفة، داخل المغرب وخارجه، فأنجزت بصددها الرسائل الجامعية والأبحاث الأكاديمية، وهنا لابد من الإشارة، على سبيل التمثيل لا الحصر، إلى الأطروحة الجامعية المهمة التي أعدها الباحث الأسباني راموس، الأستاذ بجامعة أشبيلية، حول الأعمال الروائية، لـ "محمد زفزاف"، ومن بين النقاد المشارقة الذين كتبوا عن آخر أعماله نذكر الناقد المصري "صبري حافظ" في دراسته المتميزة لآخر رواية صدرت للراحل بعنوان "أفواه واسعة". وإذا لوحظ أن ثمة تراجعا ما بخصوص الاهتمام النقدي بالأعمال الأدبية الأخيرة للراحل، فيبقى تراجعا نسبيا وغير مبرر، أمام ما أصبح يطبع بعض خطاباتنا النقدية والتحليلية من زبونية وسطحية وابتذال، وفي هذا الإطار، لابد من الإشارة كذلك إلى ما حققته رواية "محمد زفزاف" المرأة والوردة" من تراكم نقدي لافت حولها، حيث أنه بمجرد صدروها في أواخر السبعينات خصها النقد

الأدبي في المغرب بالقراءة والتحليل، لتحقق تراكما نقديا منهما ساهم فيه مجموعة من الأسماء من الجيل الأول من النقاد ومن الأجيال التالية، كما تباينت بصدد الرواية نفسها المنظورات النقدية من ناقد لآخر وأحيانا لدى الناقد نفسه خصوصا أن هذه الرواية تطرح من الأسئلة والموضوعات ما يغري النقد الأدبي آنذاك لأجل تجريب المناهج وتوظيف المفاهيم والمقولات النقدية، وتحديدا ما يهم منها موضوعات "الجنس" و"الذات" و"الهوية" و"الآخر" (الغرب).. وتعتبر الدراسة التي أنجزها الجامعي المغربي الباحث "أحمد اليبوري"، إحدى أقدم تلك الدراسات وأعمقها تحليلا لهذا العمل بشهادة أحد من كتبوا بعد اليبوري عن الرواية ذاتها.

خارج الاحتفاء الملحوظ لأعمال "زفزاف" القصصية والروائية بالزخم في المضامين والأسئلة والموضوعات، اهتمت أعماله كذلك بالتنويع في الأشكال وفي طرائق الكتابة السريعة، خصوصا على مستوى التنويع في استثمار المنظورات السردية وتعديدها في النص الواحد و"محمد زفزاف" في ذلك كله وفي غيره من الإنجازات الأخرى، إنما كان يؤسس لكتابة قصصية وروائية مغايرة، بما هي كتابة تراهن على رصد كتابة المغامرة إلى جانب مغامرة الكتابة في تلاوينها العديدة.

إلا أن أهم ميزة تكشف عنها أعماله هي تجسيدها لوفاء أسطوري بين الكاتب وعالمه الإبداعي بمثل ذلك الوفاء المشتهى لفضاء الدار البيضاء خصوصا ما يتصل منه بالحضور المهيمن للرؤية الانتقادية في

أعماله الأدبية؛ فقيمة أعماله الإبداعية تأتي أساسا من قدرتها على الانتقاد والسخرية والتهكم، بحيث نحس باللغة الإبداعية أعماله غير منفصلة كليا عن لغات الشخوص وعن رؤية الكاتب إلى العالم الذي يخلقه من حولها، وهي (أي الشخوص) تحكي عن ذواتها ومشاكلها وخيباتها، وعن رغائبها الخاصة والعامة، كما تحكي عن أوهامها وأحلامها وآمالها، إن هذا الوضع يكشف عن ثراء باهر في مستويات المتخيل الحكائي المميز لأعمال "زفزاف" الأدبية، وهو ما جعلها تثير من حولها الكثير من الجدل والأسئلة النقدية المخصبة والمقلقة، ويكفي هنا أن نشير إلى أعماله التالية (بيوت واطئة– المرأة والوردة– الأفعى والبحر– بيضة الديك– الثعلب الذي يظهر ويختفي – غجر في الغابة – بائعة الورد – أفواه واسعة..) لكي نلمس عن كثب مدى ما حققه التراكم النصي لدى الراحل من أسئلة وما يقدمه من إمكانيات جديدة لإعادة القراءة والتأويل واستخراج دلالات جديدة، خصوصا أن أعماله القصصية والروائية قد أعيد طبعها في أربعة مجلدات (ضمن سلسلة الأعمال الكاملة) بمبادرة من وزارة الثقافة المغربية، وهي تشكل الآن تجربة نصية متكاملة للدارسين والمهتمين بالتاريخ للأشكال وللمضامين وعقد المقارنات وتتبع المراحل التطورية في الكتابة والسرد.

وإذا كانت قضية "الكتابة" قد شغلت الراحل "زفزاف" في العديد من أعماله، وتحديدا في روايته الأخيرة "أفواه واسعة" باعتبارها موضوعا للمساءلة والانتقاد، فإن سؤال "الموت" قد جثم بدوره على هذه الرواية، وكان "زفزاف" قد أحس بثقله عليه ففجره إبداعيا فيها وبشكل لافت

وحدسي، حيث يخيم الموت كعتبة لتحريك العديد من الأسئلة المسكوت عنها والمرتبطة بسؤال الكينونة خصوصا، فالموت في هذه الرواية يصبح أحد هموم الكتابة عموما، بما هو سؤال جوهري، في ارتباطه خصوصا بمسألة القلق والوجود والحياة والعالم الآخر، ف "النصر للموت فى آخر الأمر" تقول الرواية (ص٦٨) هكذا تشاء المصادفات أن تكون آخر موضوعة تحتفي بها آخر رواياته هي موضوعة "الموت"، وكان هذا المبدع قد حدس رحيله فأبى إلا أن يتصالح مع الموت إبداعيا قبل أن يختطفه من عالمه الإبداعي.